تعليقات

فضيلة الشيخ صالح بن عبدالله بن حمدٍ العصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ كتابه

خلاصة تعظيم العلم

النُّسخة الإلكترونيَّة **(الأولىٰ)**

الشيخ لم يراجع التفريغ

http://www.attafreegh.com/

الحمدُ لله الذي جعل للعلم أصولاً، وسهَّل بها إليه وصولاً، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما بُيِّنت أصول العلوم، وسلَّم عليه وعليهم ما أُبرز المنطوق منها والمفهوم، أما بعد:

فهذا شرح الكتاب الأول من برنامج **"أصول العلم"** في سنته الثالثة خمس وثلاثين بعد الأربعمائة والألف، ستٍ وثلاثين بعد الأربعمائة والألف، وهو كتاب **"خلاصة تعظيم العلم"** لمصنفه صالح بن عبدالله بن حمدٍ العصيمي -وفقه الله-.

قال المصنف وفقه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المعظم بالتوحيد، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد المخصوص بأجل المزيد، وعلىٰ آله وصحبه أولي الفضل والرأي السديد.

أما بعد:

فهذه من كتابي «تعظيم العلم» خلاصةُ اللفظ، أُعدت بالتقاطها لمقصد الحفظ، فاستخرج منه للمنفعة المذكورة اللباب، وجُعل فيه الأُنمُوذج من كل باب؛ ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار، ويترشَّحوا بعده إلىٰ العمل والادِّكار.

فأسأل الله لي ولهم لزوم معاقد التعظيم، والفوز بجوامع فضله العظيم.

ابتدأ المصنف -وفقه الله- كتابه بالبسملة، ثم أردفها بحمد الله والصلاة علىٰ نبيِّه ﷺ، وهٰـؤلاء الثلاثة من الآداب المتفق عليها من آداب التصنيف، فإن من صنَّف كتابًا استُحسن له أدبًا أن يلتزم جملةً من الآداب منها هٰـهنا ثلاثةُ آداب:

أحدُها: ابتداؤه بالبسملة.

وثانيها: إرداف البسملة بالحمدلة.

وثالثُها: تضمين ديباجة كتابه الصلاة علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ آله وصحبه، ذكر هذا جماعة منهم ابنُ عبدالبر، والعينيُّ، في آخرين.

وألمح المصنف إلىٰ مقصوده من هذا الكتاب، وهو ابتغاء تعظيمٍ مطلوبٍ شرعًا في قوله: (الحمد لله المعظم بالتوحيد) فالمراد إيقاف المتلقي عليه تعظيم شيءٍ من الشرع، وهذا المعظم هو العلم كما قال بعد: فهذه من كتابي "تعظيمُ العلم"، ومن عِتاق التراجم المشيرة إلىٰ هذا الأصل أنَّ أبا محمدٍ الدارميَّ الحافظ جعل في مقدمة كتابه "السنن كتابًا ترجمه بقوله: باب إعظام العلم، وهذه المدونة المسمَّاة بالخلاصة هي كما قال: (خلاصة اللفظ) أي: من الكتاب الأصل، والخلاصة هي النقاوة، فخلاصة الشيء نقاوته، والحامل علىٰ جمع هذه النَّقاوة علىٰ حِدَه هو المذكور في قوله: (أعدت بالتقاطها لمقصد الحفظ) لأن الحفظ يبتغىٰ فيه تقليل المباني مع تكثير المعاني، فالمحمود حفظه هو ما قلَّ مبناه وجلَّ معناه.

ثم قال: (فاستُخرج منه للمنفعة المذكورة) يعني الحفظ (اللباب) ولبابُ الشيء خالصه، فهذه الأوراق تشتمل علىٰ لُباب كتاب "تعظيم العلم".

ثم قال: (وجُعل فيه الأنموذج من كل باب) أي: المثال المحتذىٰ، فالأنموذج بضم الواو هو المثال المحتذىٰ، فالتراجِم التي عقدها المصنف في هذا الكتاب تشتمل في كلِّ باب منها علىٰ أُنموذج يُحتذىٰ يشير إلىٰ ما وراءه مما يحاذيه مما هو مذكور في أصله "تعظيم العلم".

ثم قال: (ليكون في نفوس الطلبة شمس النهار) أي: واضحـًا جليًّـا؛ فإن العرب تضرب مثلاً في وضوح الشيء فتقول: إنه بيِّنٌ كشمسِ النهار، فإن شمس النهار لا تخفىٰ علىٰ ذي بصر.

ثم قال: (ويترشَّحوا بعده) أي: يتهيئوا (إلىٰ العمل والادِّكار) أي: الاتعاظ والاعتبار، أصله الاذدكار بذال ثم دال ثم قُلبت الذال دالاً وأدغمت في أختها فصار الادِّكار، والمراد به الاتعاظ والاعتبار، فإنه إذا قلَّت المعاني أمكن للنفس أن تجول فيها فكراً ونظراً، وتتعظَ بها حقيقة وخبراً، ثم تصعد بعد ذلك إلىٰ امتثالها واقعـًا وعملاً.

قال المصنف وفقه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأشهد ألا لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه عدد من تعلم وعلم.

أما بعد:

فإن حظَّ العبد من العلم موقوف علىٰ حظ قلبه من تعظيمه وإجلاله، فمن امتلأ قلبه بتعظيم العلم وإجلاله؛ صلُح أن يكون محلاً له، وبقدر نقصان هيبة العلم في القلب؛ ينقص حظ العبد منه، حتىٰ يكون من القلوب قلبٌ ليس فيه شيءٌ من العلم.

فمن عظَّم العلم لاحت أنواره عليه، ووفدت رسل فنونه إليه، ولم يكن لهمته غاية إلا تلقيه، ولا لنفسه لذةٌ إلا الفكر فيه، وكأن أبا محمد الدارميَّ الحافظ – رَحِمَهُ اللهُ– لمح هذا المعنىٰ، فختم كتاب العلم من سننه المسماة بـ «المسند الجامع» بباب في إعظام العلم.

وأعون شيء علىٰ الوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله: معرفة معاقد تعظيمه، وهي الأصول الجامعة المحققة لِعظمة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظمًا للعلم مجلاً له، ومن ضيعها فلنفسه أضاع، ولِهواه أطاع، فلا يلومنَّ – إن فتر عنه – إلا نفسه، (يداك أوكتا وفوك نفخ)، ومن لا يُكرم العلم لا يُكرمه العلم.

هذه المقدِّمة الثانية مقدِّمة بعد المقدِّمة الأولىٰ، فإنَّ المقدِّمة الأولىٰ هي مقدِّمة الخُلاصة، وهذه المقدِّمة الثانية هي مقدِّمة الأصل وهو "تعظيم العلم".

والمقدِّمات في أبواب العلم نوعان:

أحدهما: مقدِّمة علم، وهي: المبادئُ العشرةُ له.

والآخر: مقدِّمة كتاب، وهي: الديباجةُ التي تُجعل بين يديه، والعادةُ الجارية غالبًا الاكتفاء بمقدِّمةٍ واحدة إلا إذا اقتضت الحال إرداف المقدِّمة الأولىٰ بمقدِّمة ثانية، كالحال الواقعة هنا من كون الكتاب مختصراً لأصلٍ فتكون فيه مقدِّمتان:

إحداهما: مقدِّمة الأصل.

والأخرىٰ: مقدِّمة المختصر.

وذكر المصنف –وفقه الله– في هذه الديباجة (أن حظ العبد من العلم موقوف) أي: مُرْتهنٌ، (علىٰ حظ قلبه من تعظيمه وإجلاله) فما يحوزه ملتمس العلم من العلم هو مرتهن بما يكون في قلبه من تعظيم العلم وإجلاله، فإنه إذا عظَّمه صَلُح أن يكون قلبه محلاً له، وإن لم يعظمه لم يصلح أن يكون قلبه محلاً للعلم.

ثم قال: (فمن عظم العلم لا حت أنواره عليه) أي: ظهرت، (ووفدت رسل فنونه إليه) أي: قدمت، (ولم يكن لهمته غايةٌ إلا تلقيه، ولا لنفسه لذةٌ إلا الفكر فيه) لأن من ولَعَ قلبه بشيءٍ عظُم اشتغاله به، فإن من أحبَّ المال كثر اشتغاله بتحصيله، ومن أحبَّ العلم عَظُمَ اشتغاله بتحصيله، فالوصول إلىٰ هذه الرتبة لا يكون دفعةً واحدة بل يكون بقدر امتلاء القلب بتعظيم العلم، وهذا الأصلُ كان من الحقائق الثابتة في أحوال السلف، وإذا أردت أن تستخرج الأصول التي عظَّمت علم السلف رصدت جملةً منها من أفرادها ما ترجم له أبو محمد الدارميُّ بقوله: "باب في إعظام العلم" فإن علوم السلف زكت، ومعارفَهم نمت، لما كان في قلوبهم من إعظامٍ للعلم، ولو عَمَدَ واحد إلىٰ جمع أحوال السلف وأقوالهم في إعظام العلم ومسالك ذلك لحشد كمًّا هائلاً يطَّلع به ملتمسُ العلم علىٰ أنه لا سبيل إلىٰ نيل العلم إلا بإعظامه، ولا نريد بهذا النيل مجرد ما يقع عند الناس من صورة العلم وما يتباهون به من أوعيته ككثرة اقتناء الكتب، أو نيل الشهادات، أو كثرة المشايخ؛ كلا، ولكنَّ المراد هو ما وصل إليه السلف من العلم، وهو العلم النافع المنوِّر للبصائر الذي نالوا به المقامات العالية في أحوالهم وعلومهم وأعمالهم في الدنيا ويُرجىٰ لهم به نيل الدرجات الرفيعة في الآخرة.

ثم لمّا قرر المصنف ثبوت هذا الأصل في اقتباس العلم ذكر أن (أعون شيء) أي: أكثر شيء عونـًا لك لتصل إلىٰ إعظام العلم وإجلاله هو (معرفة معاقد تعظيمه) وبيَّن المراد بمعاقد التعظيم بقوله: (وهي الأصول الجامعة المحققة لعظمة العلم في القلب) فإن الوصول إلىٰ تعظيم العلم لا ينبغي أن يكون خفيًّا، بل يجب أن يكون واضحـًا جليًّا، إذ رعتُه الشريعة في أدلتها وأعمله السلف في أحوالهم وأقوالهم، فلا بدَّ أن يكون ظاهراً بيِّنـًا، وذلك الإعظام جاء منحصراً في جملةٍ من الأصول الحقيقةِ بأن تُسمَّىٰ معاقد تعظيم العلم، فكلُّ معقدٍ من المعاقد المستقبلة هو لمن أخذ به مؤدٍ إلىٰ تعظيم العلم، فلو قُدِّر أنك نظرت إلىٰ المعقد الأول وهو: "تطهير وعاء العلم" أي: القلب، فإنك تعلم أن من السبل الموصلة إلىٰ إعظام العلم حرصُك علىٰ طهارة قلبك، فإن الذي يبتغي تعظيم العلم يجتهد في أن يكون الوعاء الذي يُجعل فيه العلم طاهراً، فالآخذ بهذه المعاقد هو سالكٌ سبيل تعظيم العلم، ولا ينحصر تعظيم العلم في

هذه المعاقد، لكنَّ المقصود إبانة جملةٍ مستكثرة من الأصول التي تؤدي إلىٰ إعظام العلم وهي السبيل الآمن للوصول إلىٰ العلم، فإن التِّيْه الذي يتقلب فيه ملتمس العلم في الأعصار الأخيرة من أعظم أسبابه ضعف إجلال العلم وإعظامه في قلوبهم، وإذا كانت هذه حالهم فمن المحال لمن عقل خطاب الشرع ووعىٰ أحوال السلف أن يقال إن هولاء ولو كثُرت الأسباب التي تؤدي إلىٰ العلم كطباعة الكتب، وعقد الدروس، وغيرها من هذه السبل = محالٌ أن ينالوا العلم، وهذا جوابُ سؤالٍ كبير يطرحه بعضنا علىٰ نفسه وهو: أنه يشتغل في طلب العلم مدةً مديدة ثم لا يؤنس من نفسه رشداً فيه، ولو أنه بَصُرَ علَّته، وخَبُرَ مرضه، ثم سعىٰ في مداواته لتسارع وصول العلم إليه، ومن جرَّب سيعرف حقيقة هذا.

ثم قال: (فمن أخذ بها) أي: بمعاقد التعظيم، (كان معظِّمًا للعلم مجلاً له، ومن ضيعها فلنفسه أضاع، ولِهواه أطاع، فلا يلومن – إن فتر عنه – إلا نفسه) أي: إذا انقطع عن العلم فاعلم أنَّ الآفة التي علقت بقلبك فأودت به بعيداً عن العلم كان مبتدؤها في عدم رعايتك هذا الأصل الجليل وهو إعظام العلم.

ثم ذكر مثلاً عربيًا مشهوراً وهو: (يداك أوكتا وفوك نفخ) وهذا مثلٌ تضربه العرب لمن أهلك نفسه، وأصله: أن رجلاً أراد أن يقطع نَهَراً فعَمَدَ إلىٰ قربةٍ فنفخ فيها حتىٰ امتلأت بالهواء ليركبها فتطفوَ به علىٰ الماء فلما استتم نفخَها أوكا عقدها؛ أي: شدَّ عليها لئلا يخرج الهواء منها، فلمَّا ألقىٰ بنفسه ملتمسًا أن تحمَله هذه القربة في النهر لم تقدر تلك القربة علىٰ حمله وغرِق في الماء، فقيل مثلاً: (يداك أوكتا) أي: هي التي شَّدت حبل هذه القربة، (وفوك) أي: فمك، (نفخ) الهواء فيها.

ثم قال: (ومن لا يكرم العلم لا يكرمه العلم) أي: من لم يسعَ في إكرام العلم وإجلاله وإعظامه فإن العلم لا يكرمه، لأن العلم عزيز إذ هو ميراث النبوة، والله ﷻ يغار، ومن غيرته ﷻ ألا يصطفي لمن اصطفاه إلا المصطفىٰ، فكما اصطفىٰ النبي ﷺ للرسالة فلم تكن لأحدٍ غيره في عهده، ولا لأحدٍ بعده، فإن العلم وهو ميراث النبوة لا يكون إلا اصطفاءً، وهذا العلم الذي نذكره هو العلم المطلوب شرعًا، أمَّا العلم الذي يدَّعيه الناس بالرئاسات، أو الشهادات، أو كثرة المعلومات، فإنه لا يعكِّرُ علىٰ هذا الأصل إذ يرىٰ بعض الناظرين أن فلانًا أو علاَّنًا عنده علم وهو لا يتمثل إكرام العلم، وجواب هذا الإشكال وبيانُ هذه الحال أن العلم الذي عنده ليس هو العلم المطلوب شرعًا فليس هو العلم الذي يرفعه في الدرجات، ويُقرِّبه من ربِّ الأرض والسماوات، ولكنَّه علمٌ يُحصِّل به حطامًا في الدنيا، أو ذكراً وجاهًا فيها، أو منصبًا ورئاسة، حتىٰ إذا لقيَ الله ﷻ وجد له ما عنده.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الأول:

تطهير وعاء العلم.

وهو القلب، وبحسب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم، فمن أراد حيازة العلم فليزين باطنه، ويُطهر قلبه من نجاسته؛ فالعلم جوهرٌ لطيف، لا يصلح إلا للقلب النظيف.

وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.

وإذا كنت تستحيي من نظر مخلوقٍ مثلك إلىٰ وسخ ثوبك، فاستحي من نظر الله إلىٰ قلبك، وفيه إحَنٌ وبلايا، وذنوبٌ وخطايا.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ أنه النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم».

من طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلم وارتحل.

قال سهل بن عبد الله –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النور، وفيه شيءٌ مما يكره الله ﷻ».

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد الأول من معاقد تعظيم العلم، وهو: (تطهير وعاء العلم) والمراد به: الوعاء المتعلِّق بالجسد، فإن أوعية العلم نوعان:

أحدهما: أوعية داخلية.

والآخر: أوعية خارجيَّة.

فالأوعية الداخلية هي وعاء واحد هو القلب فهو محلُّ العلم من الإنسان، فإنَّ ما يكون في الإنسان من موادٍّ روحيةٍ أو جسدية لها محالُّ منه، والعلمُ واحدٌ مما يكون فيه، ومحلُّه منه هو القلب وشواهد ذلك في القرآن والسنة كثيرة.

والآخر: أوعيةٌ خارجيِّة، وهي كثيرةٌ أشهرُها ذكراً، وأكثرها دورانـًا، هو الكتاب.

والمراد من هذه الأوعية هنا هو الوعاء الداخلي الذي يتعلق بالإنسان وهو القلب.

قال المصنف: (وبحسب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ازدادت طهارته ازدادت قابليته للعلم) لأنَّ قبول وعاء ما لما يوضع فيه هو بحسب صلاحية ذلك الوعاء لما يُلاقيه، فإنَّ من جاء بماءٍ عذبٍ صافٍ زلالٍ فأراد أن يبقىٰ علىٰ عذوبته وصفائه وزلاله جعله في كأسٍ من زجاجٍ نظيفٍ، فإذا جعله في كأسٍ فيه ملحٌ، أو في كأسٍ فيه وسخٌ، فإنه تُسلب هذه الخصائص منه، فبعد أن كان عذبًا يصير ملحًا أُجاجًا، وبعد أن كان صافيًا زلالا يكون وَسِخًا مستقذراً، فكذلك العلم هو مِنَّا في القلب فإذا طهُرت قلوبنا صار العلم الواصل إليها الثابت فيها مع طهارتها علمًا صحيحًا نافعًا، وإذا كان هذا العلم ملاقِيًا محلاًّ مستقذَراً مشتملاً علىٰ خُبثٍ في القلب فإن هذا العلم إمَّا أن يمتنع دخوله، وإمَّا أن يكون دخوله عسراً، وإمَّا أن يكون بعد دخوله ضعيفَ الأثر في النفس.

ثم قال: (فمن أراد حيازة العلم فليزين باطنه) وذلك بقوله: (ويُطهِّر قلبه من نجاسته) فتزيين الظاهر بالحلية التي يجعله الإنسان لنفسه من ثيابٍ أو غيرها، والحليةُ الباطنة تكون بأمرٍ واحد وهو: تطهير القلب من النجاسات.

ثم قال: (فالعلم جوهرٌ لطيف، لا يصلح إلا للقلب النظيف) والعلم المراد هُنا ليس جنس العلم بل "أل" في قوله: (فالعلم) عهدية؛ أي: العلم المعهود المراد، وهذا العلم المعهود المراد يجمع صفتين:

الأولىٰ: الصحيحُ في نفسه.

والآخر: النافعُ لصاحبه.

فإذا قيل في بيان هذه العبارة باعتبار معنىٰ "أل": فالعلم الصحيح في نفسه النافع لصاحبه جوهرٌ لطيف لا يصلحُ إلا للقلب النظيف، صار هذا الأمر واضحًا بيِّنًا جليًّا، لا يُعكِّر عليه أن تلقىٰ رجل سوءٍ عنده علم، لأن هذا العلم الذي عنده إمَّا أن يكون غيرَ صحيح في نفسه، أو أن يكون غيرَ نافعٍ له، فالذي يُقال فيه: العلمُ جوهرٌ لطيف لا يصلُح إلا للقلب النظيف هو العلم الجامع للصفتين السابقتين وما يندرج فيهما من المعاني.

ثم بيَّن المصنف طهارة القلب في أصولها التي تقوم عليها وترجع إليها فقال: (وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين: أحدهما: طهارته من نجاسة الشبهات. والآخر: طهارته من نجاسة الشهوات.) لأن الأمراض التي تَعْتَوِرُ القلب لا تخرج عن أن تكون: مرض شهوة، أو مرض شبهةٍ، فإذا طُهِّر القلب من

هذه الأمراض صار طاهراً، وإذا تسلَّلت هذه الأمراض إلىٰ القلب ثم انعقد عليها تولَّد منها شرورٌ عظيمةٌ في الدنيا والآخرة.

وهذان المرضان جعل الله عزَّ وجلَّ لكلِّ واحدٍ منهما دواءً عظيمـًا، فالشبهات دواؤها اليقين، والشهوات دواؤها الصبر، ذكره جماعةٌ منهم ابنُ تيمية الحفيد، وتلميذه أبو عبدالله ابن القيم، وحفيده في التلمذة أبو الفرج ابن رجب –رحمهم الله تعالىٰ–، ومن بدائع مقولات هٰـؤلاء فيها قول ابن القيم –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ– في "مدارج السالكين": إذا تزوَّج الصبر باليقين تولَّد منهما الإمامةُ في الدين، أي: إذا اقترن في حال العبد وجود الصبر واليقين فإنه ينال الإمامة في الدِّين، وشاهده قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾. [السجدة:٢٤]

ثم ذكر –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– حال العبد من استحياء نظر مخلوقٍ مثله إليه في وجود وسخٍ في ثوبه، وأعظم من ذلك أن يستحييَ من الله عزَّ وجلَّ أن ينظر إلىٰ قلبه وفيه إحنٌ وبلايا، وذنوبٌ وخطايا.

ثم ذكر حديثـًا في بيان جلالة ذلك، وهو قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم». فمحلُّ نظر الله من العبد شيئان:

أحدهما: القلب.

والآخر: العمل.

وأنت في ظاهر بدنك لُبسـًا وحِليةً تتجمَّل لغيرك، وتخافُ أن ينظر إليك شزراً إذا رأىٰ وسخـًا عالقـًا في ثوبك أو بدنك، وأعظم من هذا حالاً، وأجلُّ مطلبـًا، أن تخاف نظر الله إلىٰ قلبك وهو مشتملٌ علىٰ ما يكرهه الله ﷻ ويأباه، ولهذا فإن شأن القلب في الأحوال عظيم، فمتىٰ صلح القلب صلحت حال العبد في الدنيا والآخرة، ومتىٰ فسد القلب فسدت حال العبد في الدنيا والآخرة، والراعون أحوال قلوبهم هم الناجون، والغافلون عنها هم الهالكون، فإن هذه العلل إذا تسلَّلت إلىٰ القلب فصارت أوساخـًا فيه واستحكمت أمراضـًا جاثيةً في جنباته قادت العبد إلىٰ ظُلمات، وإذا كان أحدُنا يهُولُهُ أن يدخل غرفةً مظلمة لا يجد فيها نوراً، فكيف إذا كان قلبُه مظلمـًا لا يجد فيه نوراً؟ كيف إذا كان قلبه مملوءًا بالغش، والحسد، والحقد، والغِل، والخيانة لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين؟ هو أسوأُ حالاً وأقبح ممن نراه جميعـًا في ثوبٍ دنس، ورائحةٍ منتنة، ثم نتباعد عنه ونرحم حاله التي هو عليه، وإذا كانت هذه الحال تعترينا عند

رؤية من هذه صورته في الظاهر، فأيُّنا يرعىٰ هذا الأمر خوفًا في صورته في الباطن، ولهذا قال بعض السلف: لو كان للذنوب رائحة لما جلس بعضُنا إلىٰ بعض، ولكنَّا جميعًا تحت ستر الله ﷻ.

ثم قال: (من طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلم وارتحل) أي: تركه العلم وارتحل، فـ"الودع" الترك، و"وَدَعَ" ترك.

ثم ذكر كلمة عظيمة لسهل بن عبدالله التُّسْتَري –رحمه الله– أنه قال: (حرامٌ علىٰ قلبٍ) أي: ممنوعٌ علىٰ قلبٍ، (أن يدخله النور، وفيه شيءٌ مما يكره الله ﷻ) أي: يمتنع أن يجدَ النورُ النافع للقلب؛ وهو نور البصيرة سبيلاً إليه وفي ذلك القلب شيءٌ مما يكرهه الله ﷻ، ولذلك فإن معشرَ ملتمسي العلم تجري أنفسهم كثيراً في ابتغاء الحفظ، والفهم، وجمع الكتب، ومجالسة الشيوخ، ومدارسة الأقران؛ لكنَّهم يغفلون عن أمرٍ عظيم وهو أن العلم الصحيح في نفسه النافع صاحبه هو بيد الله ﷻ، لا يناله العبد بقوة حفظه، ولا جودة فهمه، ولا كثرة أشياخه، ولا جمعه الكتب، ولكنَّه يناله إذا رضيه الله ﷻ أن يكون محلاً للعلم، فإذا عامل العبدُ ربَّه هذه المعاملة فتح الله ﷻ له أبواب العلم بما لا يُفصح عنه لسان، وإذا رأيت معارف السلف من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ثم من رضع لِبانَ أولـٰئك، وكَرَعَ من مواردهم، وصارت حالُه كحالهم، كأبي عبدالله مالك بن أنس، وأبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، وأبي عبدالله أحمد ابن حنبل، فمن بعدهم؛ كابن تيمية الحفيد، وأبي عبدالله ابن القيم، وأبي الفرج ابن رجب، ومن بعدهم في قرون الأمة = وجدتَ أن هـٰؤلاء لم ينالوا العلم بمجرد الأسباب الظاهرة التي نجري فيها صباح مساء، ولكنَّهم نالوه بما تؤنسه من عباراتهم، وتلاحظه من إشاراتهم، من شِدَّة اتصالِ قلوبهم بالله ﷻ خوفًا ورهبةً وخشيةً ورجاءً وإخباتًا، حتىٰ إنه لتمرُّ بالمرء أحوالٌ لهم يظنُّ أنَّ مثلَ هذا لا يقعُ من بشر، ولذلك صار المتأخرون إذا طالعوا أحوال السلف استعظموها، وقالوا: إن هذه الأحوال تُذكر علىٰ وجه المبالغة، فإذا رأيت في أحوالهم من يُصلي في اليوم ثلاثمائة ركعة، ومن يصوم يومًا ويفطر يومًا، ومن يسبِّح في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة، ومن يُذكر له عدوه فينهىٰ عن ذكره في مجلسه، فإن هذه الأحوال التي وصلوا إليها، لم يصلوا إليها بالجبلة البشرية، وإنما وصلوا إليها بالتوفيق من الله ﷻ، قال أبو عبدالله ابن القيم: جئتُ يومًا مُبشِّراً شيخنا –يعني: أبا العباس ابنَ تيمية– بموت رجلٍ من أعداءِه، فزجرني، شف! قال: فزجرني ونهاني عن ذلك، وقام إلىٰ أهله فعزَّاهم وقال لهم: أنا لكم من بعده فأيُّ شيءٍ من حوائج الدنيا تحتاجونها فأنا لكم بها كفيل. هذا كيف الإنسان هذا؟ عدوّه ويقوم ويزجر تلميذه

لمَّا جاءه بشره بموته، ثم يعزي أهله، ثم يقول لأهل هذا: إذا احتجتم شيء فأنا لكم كفيل بحوائج الدنيا، هٰؤلاء ما وصلوا إليها إلا بأنهم كانوا مع الله ﷻ، تمثَّلوا ما أوجزه ابن القيم بقوله:

فلواحدٍ كن واحداً في واحدٍ أعني طريق الحقِّ والإيمان

فهم كانوا لله فكان الله ﷻ لهم، فلا تغفلْ يا طالب العلم عن تقويةِ صلتك بالله ﷻ، واعلم أنَّ ما بُلِّغتَهُ من أسبابٍ في حفظٍ، أوفهمٍ، أو جودةِ شيخٍ مُعلِّم، أو كثرةِ كتب، أنَّ هذه أسبابٌ ظاهرة، وأنَّ الأمرَ الباهرَ هو توفيقُ اللهِ ﷻ لك.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثاني:

إخلاص النية فيه.

إن إخلاص الأعمال أساسُ قبولها، وسُلم وصولها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وفي الصحيحين عن عمر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «الأعمال بالنية، ولكلِّ امرئٍ ما نوىٰ».

وما سبق من سبق ولا وصل من وصل من السلف الصالحين إلا بالإخلاص لله رب العالمين.

قال أبو بكر المرُّوذيُّ – ﵀ –: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله – يعني أحمد بن حنبل – وذكر له الصدق والإخلاص؛ فقال أبو عبد الله: «بهذا ارتفع القوم».

وإنما ينال المرء العلم علىٰ قدر إخلاصه.

والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أصولٍ، بها تتحقق نية العلم للمتعلم إذا قصدها:

الأول: رفع الجهل عن نفسه؛ بتعريفها ما عليها من العبوديات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنهي.

الثاني: رفع الجهل عن الخلق؛ بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.

الثالث: إحياء العلم وحفظه من الضياع.

الرابع: العمل بالعلم.

ولقد كان السلف – رحمهم الله – يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورعون عن ادعائه، لا أنهم لم يحققوه في قلوبهم.

سُئل الإمام أحمد: هل طلبت العلم لله؟ فقال: «لله! عزيز، ولكنه شيء حُبِّب إليَّ فطلبته».

ومن ضيع الإخلاص فاته علمٌ كثير، وخير وفير.

وينبغي لقاصد السلامة أن يتفقد هذا الأصل – وهو الإخلاص – في أموره كلها، دقيقها وجليلها، سرها وعلنها.

ويحمل علىٰ هذا التفقد شدة معالجة النية.

قال سفيان الثوري – ﵀ –: «ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب عليَّ».

بل قال سليمان الهاشمي –رَحِمَهُ اللَّهُ–: «ربما أُحدث بحديثٍ واحدٍ ولي نية، فإذا أتيت علىٰ بعضه تغيرت نيتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيات».

ذكر المُصنِّف –وفقه الله– المعقد الثاني من معاقد تعظيم العلم، وهو: (إخلاص النية فيه)، والإخلاص شرعًا: هو تصفية القلب من إرادة غير الله.

وإلىٰ ذلك أشرت بقولي:

إخلاصُنا لله صَفُّ القلبَ من ... إرادةٍ سواه فاحذر يا فَطِن

وذكر المُصنِّف –وفقه الله– في مبتدأ بيانه من الدلائل الشرعية ما يُوضح رتبة الإخلاص فقال: (إن إخلاص الأعمال أساسُ قبولها، وسُلَّمُ وصولها) مُرْدِفًا ذلك بآيةٍ وحديثٍ يُبينُ عن هذه الرُّتبة.

ثم قال: (وما سبق من سبق ولا وصل من وصل من السلف الصالحين إلا بالإخلاص لله رب العالمين) فالسبق إلىٰ الله يحصل بأسبابٍ من أعظمها الإخلاص، وقرنه الإمام أحمد –رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ– لمَّا ذُكر له الصدق والإخلاص قرن الإخلاص بالصدق في أقوال عِدَّة منها هٰهُنا المذكورُ نقلاً عن أبي بكرٍ المرُّوذي –رَحِمَهُ اللَّهُ– قال: (سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله –يعني أحمد بن حنبل– وذَكر له الصدق والإخلاص؛ فقال أبو عبد الله: «بهذا ارتفع القوم») يعني بحصول هٰذين الأمرين في نفوسهم كان ارتفاعهم، فهم بصدقهم وإخلاصهم نالوا المراتب العالية.

والفرق بين الصدق والإخلاص، أن الإخلاص هو توحيد الإرادة، والصدقَ هو توحيد المُراد، ذكره أبو عبدالله ابن القيم في مدارج السالكين، وفي الكافية الشافية، وغيرهما.

ثم قال: (وإنما ينال المرء العلم علىٰ قدر إخلاصه) أي: بحسب إخلاصه.

ثم بيَّن حقيقة الإخلاص في العلم؛ لأن كلَّ عملٍ له نيةٌ يوجد فيها المعنىٰ المطلوب شرعًا، فالوضوءُ له نية، والصلاةُ لها نية، والصدقةُ لها نية، وبرُّ الوالدين له نية، إلىٰ آخر الأعمال، والعلمُ واحدٌ منها، فمن أراد أن يصيب نية العلم التي يتحقق معها الإخلاص فيه فإن ذلك يرجع إلىٰ أربعة أصول بها تتحقق نية العلم للمتعلم إذا قصدها:

(الأول: رفع الجهل عن نفسه) وبيَّن المراد منه بقوله: (بتعريفها ما عليها من العبوديات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنهي) فهو يلتمس العلم ابتغاءَ أن يُعرِّف نفسه بما كتب الله ﷻ عليه من أنواع العبودية، وأن يُوقفها علىٰ مقاصد الأمر والنهي، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ

أَن يُتْرَكَ سُدًى﴿٣٦﴾ [القيامة:٣٦]، فالإنسان غيرُ متروكٍ هملاً لا يؤمر ولا يُنهىٰ، بل هو مأمورٌ منهيٌ، والسبيل الموصل إلىٰ معرفة الأمر والنهي هو طلب العلم.

ثم ذكر الثاني فقال: (رفع الجهل عن الخلق) أي: عن غيره، وبيَّنه بقوله: (بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتِهم) فالنافع للخلق بالعلم هو الذي يسعىٰ في تعليمهم وإرشادهم لما يتحقق به صلاح الدنيا والآخرة، فليس المقصود من بثِّ العلم بين الناس سوىٰ هذا الأمر وهو أن تهديَ الناس إلىٰ ما أرادهُ اللهُ ﷻ منهم مرشداً ومعلِّمًا، فإذا خرجت عن هذا القصد فقد آذيت نفسك، فإن الذي يستشرف لهداية الناس بالتعليم يلتمس له ذكراً، أو رئاسةً، أو جاهًا، أو مالاً، أو حالاً، أو غير ذلك من مطالب النفس، فإنه يؤذيها أبلغ الإيذاء بصرفها عن المرادِ الأكبر المرادِ منه شرعًا وهو أن يسعىٰ في هدايةِ الخلق، ولذلك فإن الصادقين الذين امتلاءت قلوبُهم بهذا الأصل لا يبالون بالخلق في ابتغاء العلم قَلُّوا أم كثروا، قبلوا أم ردُّوا، أقبلوا أم أدبروا، فهو يُعلِّمُ المائةَ كالواحد، وهو يُبيِّنُ الحقَّ بدليله قبل الناس منه أم ردُّوه، رعاةً أو رعيَّة، لأنه يعلم أن هذا العلم الذي أُوتيهُ لم يأخذه بحسبه أو نسبه، وإنما أخذه هبةً من الله ﷻ، فالذي يعرف أن العلم محضُ فضل الله عليك لا يرىٰ في العلم غير الله ﷻ، ولذلك يُمِدُّه الله بأنواع الثبات والرسوخ والهداية والنور ما لا يكون عند غيره، فإذا حُجب أحدٌ من الخلق بالعلم عن العلم فإن الصادقين لا يُحجبون به، وهم يعلمون أن هذا العلم قربةٌ موصلةٌ إلىٰ الله فيمتثلون ما أمر الله ﷻ به.

ثم قال ذاكراً الثالث: (إحياء العلم وحفظه من الضياع) فإن العلم يموت في الخلق ويضيع فيهم بما يستجدُّ لهم من الحوادث وتقلُّبات القدر التي يمضيها الله ﷻ، فمُقْتَبِسُ العلم ومُلْتَمِسُهُ ينبغي أن يكون من نيته أن يُحييْ العلم في قطره وبلده خاصَّه، وفي بلاد المسلمين عامَّة، وأن يحفظ العلم من الضياع، لأن العلم ينقص في الأمة ويذهب، فإذا قام به قائم وأعمل هذه النية كان مأجوراً علىٰ هذه النية العظيمة، وتتأكد هذه النية فيما ذكره القرافي في "الفروق" فيمن آنس من نفسه قدرةً علىٰ العلم، فالذي يُؤنس من نفسه قدرة علىٰ العلم يفوق بها غيرَه، فإنه ينبغي له أن يجتهد في امتثال هذا القصد؛ وهو أن يكون معينًا علىٰ إحياء العلم وبقائه في الناس وأن يحفظه من الضياع.

ثم ذكر الأصل الرابع فقال: (العمل بالعلم) لأن من مقاصد التماس العلم أن يوصلك إلىٰ العمل به فتعملُ بهذا العلم في سرك وجهرك.

ثم ذكر حال السلف –رحمهم الله تعالىٰ– ومبالغتَهم في ابتغاء النية، وأنهم كانوا يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم فيتورعون عن ادعائه لا أنهم لم يحققوه في قلوبهم، فهم قد اجتهدوا في تحقيقه في قلوبهم لكنهم إذا ذُكر لهم الإخلاص خافوا أن يكونوا لم يحققوه، (سُئل الإمام أحمد: هل طلبت العلم لله؟) أي: نيةً خالصةً لله، (فقال: «لله! عزيز) أي: يعزُّ عليَّ ويشتد أن أقول: إنه لله، ثم قال مبيِّنًا ذلك: (ولكنَّه شيءٌ حُبِّب إليَّ فطلبته») أي: مبتدأ أمري في العلم أن العلم حُبِّبَ إليَّ فطلبتُه، ولهذا ذكر أبو العباس ابن تيمية –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ– في قاعدةٍ له أنَّ لذةَ العلم من اللذات المباحة التي ربَّما يدخل فيها المرء لا يقصد خيراً ولا شرّاً وإنما يقصد بلوغ هذه اللذة، وكثيرٌ من الخلق يبتدئون التماس العلم لأجل هذه اللذة فإنها تحملهم علىٰ ذلك فإذا قويت قلوبهم في معرفة العلم صار أمرهم فيه لله ﷻ.

ثم قال: (ومن ضيع الإخلاص فاته علم كثير وخير وفير).

ثم ذكر أنه (ينبغي لقاصد السلامة أن يتفقد هذا الأصل – وهو الإخلاص – في أموره كلها...) وعلَّلَ مُوجِب التفقد بقوله: (ويحمل علىٰ هذا التفقد شدة معالجة النية) أي: صعوبة معاناة النية، فإن معاناة النية بإقامتها علىٰ ما يريد الله ﷻ أمرٌ شاقٌ علىٰ النفوس، (قال سفيان الثوري – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: «ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب عليَّ») أي: تتحول وتتغيَّر، فالنية معرضةٌ للتحول لأنَّ محلها القلب، ولم يُسمَّ القلبُ قلباً إلا لما يعتريه من تغيُّرٍ وتحول، قال الشاعر:

قد سُمِّيَ القلبُ قلباً من تحوُّله فاحذر علىٰ القلبِ من قلبٍ وتَحْويلِ

فإذا كان وعاء النية وهو القلب يتقلَّب، فإنَّ هذه النية تتقلب بتغيرها من قصدٍ إلىٰ آخر.

ثم ذكر ما هو أشدُّ من ذلك فقال: (بل قال سليمان الهاشمي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: «ربما أُحدث بحديثٍ واحدٍ ولي نية) أي: يحملني علىٰ ذكر هذا الحديث نيةٌ أبتغيها، (فإذا أتيت علىٰ بعضه) أي: ذكرتُ شيئاً منه، (تغيرت نيتي) أي: اختلفت تلك النية، (فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيات) فالمرء لا يزال في جزء من العلم وهو ذكر حديثٍ مسند لأجل قصدٍ ابتدأه علىٰ وجهٍ حسن يحتاج إلىٰ استصحاب هذه النية الحسنة والمجاهدة فيها حتىٰ يستقيم للمرء أمرُ نيته.

فأمر مجاهدة النفس في ابتغاء النية الصالحة في العلم وفي غيرها من الأعمال أمرٌ يحتاج إلىٰ دوامِ لزوم، ولا يظننَّ أحدُنا أن يستقيم أمره في يومٍ وليلة، بل من طالع أحوال السلف في المجاهدات رأىٰ عجباً.

قال محمد بن المنكدر: جاهدتُ نفسي عشرين سنة علىٰ قيام الليل حتىٰ استقامت لي.

وقال إياسٌ العِجْلِي: جاهدتُ نفسي في الصمت عشر سنوات. في (الصمت) عشر سنوات؛ حتىٰ صار مالكـًا زمام لسانه.

فإذا كانت هذه أحوالهم مع صفاء زمانهم، وكثرتِ المعين علىٰ الخير، وارتفاع أعلام الهدىٰ والسنة، فإن الحال التي نكون فيها نحنُ أشدُّ وأبلغ، فيحتاج أحدُنا إلىٰ دوام المجاهدة وإقامة نفسه وتذكيرها وتبصيرها بهذا، وإذا حصل له حيدةٌ عن الصراط المستقيم فإنه ينبغي له أن يُعاودَ النظر في حاله وأن يبادرَ إلىٰ التوبة ومجاهدة نفسه في ردِّها إلىٰ الطريق التي كانت عليه، ولا ينقضي العبدُ من هذا حتىٰ يُفضيَ إلىٰ الله ﷻ، قيل لأبي عبدالله أحمد ابن حنبل: يا أبا عبدالله متىٰ الراحة؟ فقال: الراحة في الجنة. أي: لا يزال العبد يُكابد في أمورٍ شاقةٍ عظيمةٍ حتىٰ يصل إلىٰ الله ﷻ في جنته، وليست هذه المكابدة في لُقمةٍ تدفعُها إلىٰ جوفك، ولا زوجةٍ تضمها إلىٰ جناحك، ولا أولادٍ يتزكَّون في كنفك، ولكنَّ المشقةَ العُظمىٰ في هداية نفسك إلىٰ الصراط المستقيم، هذه هي المشقة العظمىٰ؛ لا تزال في مكابدة، فالشيطان يُغويك، والنفس تُطغيك، والأحوال التي تتجدد للناس تغريك، فلا تزال متقلبـًا بين أعداءٍ كِثار، لا تسلم منهم حتىٰ تستمسك بهذا الأصل وهو دوام المجاهدة، ولك البشرىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فالذي يجاهد فيما يحبه الله ﷻ يهديه الله ﷻ سبل الخيرات، ولهذا نرىٰ أحدَنا يُهدىٰ إلىٰ عملٍ نافع في حفظ القرآن، أو في طلب العلم، أو في صلاة الليل، أو في صيام النفل، أو في غيرها من أبواب الخير، وإنَّ هذا المرء لم يهدِ نفسه بنفسه، وإنَّما منَّ الله عليه بالهداية، فإذا عرف العبد أن غيره من الناس نالوا هذه المقامات بهداية الله لم يلتمسها من غيره، فهو يسأل الله دائمـًا الهداية، ويقول في كل صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، لكنَّ العالم بالله ﷻ لا يجعلُ هذه الأحرف كلمةً تجري علىٰ لسانه ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، بل يعلم أن قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، حقيقةٌ مشرقة تُحرِّكه في كلِّ أحيانه سرِّها وجهرِها، ويعلمُ أَنَّهُ مفتقرٌ إلىٰ هداية الله ﷻ في كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ من أمره، فإذا هداه الله ﷻ حصلت له الهدايةُ التامَّة والنعمةُ العامَّة في الدنيا والآخرة.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثالث:

جمع همة النفس عليه.

تُجمع الهمة علىٰ المطلوب بتفقد ثلاثة أمور:

أولها: الحرص علىٰ ما ينفع، فمتىٰ وفق العبد إلىٰ ما ينفعه حرص عليه.

ثانيها: الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله.

ثالثها: عدم العجز عن بلوغ البغية منه.

وقد جُمعت هذه الأمور الثلاثة في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ».

قال الجُنَيد – رَحِمَهُ اللهُ – : «ما طلب أحدٌ شيئًا بجد وصدقٍ إلا ناله، فإن لم ينله كله نال بعضه».

وقال ابن القيم – رَحِمَهُ اللهُ – في كتابه "الفوائد": «إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، ورَدِفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور بها».

وإن مما يعلي الهمة ويسمو بالنفس: اعتبارَ حال مَن سبق، وتعرُّفَ همم القوم الماضين.

فأبو عبد الله أحمد بن حنبل كان – وهو في الصبا – ربما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلق الشيوخ، فتأخذ أمه بثيابه وتقول – رحمةً به –: «حتىٰ يؤذن الناس أو يصبحوا».

وقرأ الخطيب البغدادي – رَحِمَهُ اللهُ – «صحيح البخاري» كله علىٰ إسماعيل الحِيري في ثلاثة مجالس؛ اثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلىٰ صلاة الفجر، واليوم الثالث من ضَحْوة النهار إلىٰ صلاة المغرب، ومن المغرب إلىٰ طلوع الفجر.

وكان أبو محمدٍ ابنُ التبَّان أول ابتدائه يدرس الليل كله، فكانت أمه ترحمه وتنهاه عن القراءة بالليل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجفنة – شيءٍ من الآنية العظيمة – ويتظاهر بالنوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدرس.

فكن رجلاً رِجله علىٰ الثرىٰ ثابتة، وهامة هِمَّته فوق الثريا سامقة، ولا تكن شاب البدن أشيب الهمة؛ فإن همة الصادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابن عقيل – أحدُ أذكياء العالم من فقهاء الحنابلة – ينشد وهو في الثمانين:

مـــا شـــاب عزمـــي ولا حزمـــي ولا خُلُقـــي	ولا ولائـــــي ولا دينـــــي كـــــر مـــــــي
وإنمـــــا اعتـــــاض شـــــعري غيـــــر صبغتـــــه	والشـــيب في الشـــعر غيـــر الشـــيب في الهمـــم

ذكر المصنف -وفقه الله- المعقد الثالث من معاقد تعظيم العلم، وهو: (جمع همة النفس عليه) فإن النفس لا تترشح إلىٰ نيل العلم إلىٰ مع وجود هِمَّةٍ مستَحْكِمَةٍ فيها، فمن ابتغىٰ العلم لزمه أن يجمع هِمَّتة عليه، فمتىٰ جمعها صار مُعظِّماً له فناله.

والهِمَّةُ هي نهايةُ الإرادة كما أن الهمَّ مبتدأُها؛ ذكره ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-، فإن الإنسان إذا التمس شيئًا = أهمَّه؛ أي: لامسه الهمُّ في مبتدأه، فإذا استقام فيه غلبته هِمَّتُه في طلبه، فالهمُّ مبتدأُ الإرادة والهِمَّة نهايتها.

ثم ذكر أن الهِمَّة تجمع علىٰ مطلوبٍ ما (بتفقد ثلاثة أمور:) أي: بالتماسها،

(أولها: الحرص علىٰ ما ينفع) فإن النفس تبَّاعةٌ لأمورٍ كثيرةٍ وأبلغ ما يكون به اتِّباعها هو ما ينفعها فلتحرص عليه لتنتفع به.

ثم ذكر ثانيها فقال: (الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله) لأنه لا مكنة للعبد بقواه علىٰ الوصول إلىٰ مبتغاه، فإنه مهما بلغت قوىٰ أحدٍ مِنَّا قَدْراً ما فإن الأمر بقَدَر الله ﷻ، ومن هنا قال الإمام أحمد: القدر قُدرة الله، وكان أبو الوفاء ابنُ عقيل من الحنابلة يستعظم هذا القول عجبًا، ويراه حسنًا في إبانة حقيقة القدر أنه قُدرة الله ﷻ، فلا سبيل إلىٰ وصولك إلىٰ مطلوبٍ ما إلا بأن يُعينك الله ﷻ عليه، قال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: سِرُّ الطريق كلِّه في كَلِمَتَين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة:٥]، يعني: كلَّ الأمر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مراد الله منك أن تكون له عبداً، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي الآلةُ الموصلةُ لك كي تعبد الله ﷻ، فإن الله إذا أعانك علىٰ مطلوباته أمكنك أن تكون عبداً له، فإن لم تكن لك إعانةٌ منه خُذلت.

ثم قال: (ثالثها: عدم العجز عن بلوغ البغية منه) أي: المراد منه.

ثم ذكر أن هذه الأمور الثلاثة انتظمت في حديث نبوي عند مسلم هو قوله ﷺ: (احرص علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ) وجيمه يجوز فيها الكسر والفتح "ولا تَعْجِز" "ولا تَعْجَز"، فهذا الحديث جامعٌ للأصول الثلاثة المتقدمة التي تُجمع بها الهِمَّة علىٰ مطلوبٍ ما.

ثم ذكر كلامـًا حسنـًا لأهل العلم في بيان أثر الهمة في الوصول إلىٰ المقصود.

ثم قال: (وإن مما يعلي الهمة ويسمو بالنفس: اعتبارَ حال مَن سبق، وتعرف همم القوم الماضين)

أي: مما يجعلك عاليَ الهمة، ساميَ النفس، حريصـًا علىٰ ابتغاء ما ينفعك، مستعينـًا بالله فيه، غيرَ متقاعدٍ عاجزٍ عنه، هو أن تنظر في حال السابقين، وأن تتعرف إلىٰ همم الماضين، لأن سَوقَ النفس إلىٰ مراداتِها يكون بمسالكَ من جملتها هذا الحادي من سِيَرِ الماضين، فإذا نظر المرء في سِيَرِ الماضين فوجد أحوالهم من الكمالات في الوصول إلىٰ العلم وجد أن هذا الأمر يسوق نفسه سوقـًا إلىٰ محاذاتهم، لأن الذي خلقهم هو الذي خلقنا، والذي أعطاهم هو الذي يُعطينا، لكنَّ الشأن في صدق ما بين جنبينا من الإقبال علىٰ الله ﷻ.

ثم ذكر أحوالاً لجماعةٍ منهم كحال أبي عبدالله أحمد ابن حنبل وأنه (كان – وهو في الصبا – ربما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلق الشيوخ، فتأخذ أمه بثيابه وتقول – رحمةً به –: «حتىٰ يؤذن الناس أو يصبحوا») أي: اصبر عن الخروج إلىٰ أشياخك حتىٰ يؤذن الناس للفجر، أو يصبحوا؛ أي: يستبين الصبح.

ثم ذكر قراءة الخطيب صحيح البخاري في ثلاثة مجالس.

ثم ذكر عن أبي محمد ابن التَّبَّان أنه كان يدرس الليل كلَّه، يدرس الليل كلَّه لماذا؟ ما فيه بُكرا اختبار في الجامعة، ما فيه! يسهر الليل كلَّه؛ لأنه يرىٰ أن هذه عبادة لله ﷻ، ولذلك تُصبِّرُهُ نفسُه علىٰ ذلك، فكانت أُمُه ترحمه وتنهاه عن القراءة بالليل، فكان يأخذ المصباح ويجعلُه تحت الجفنة – شيءٍ من الآنية العظيمة – ويتظاهر بالنوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدرس، فكان من بليغ علوِّ هِمَّته أنه يبقىٰ الليل كلَّه يدرس في العلم، ويجاهد نفسه، ويُخفي عن أُمه المصباح الذي تُشفق لأجله أن يكون بين يديه، هذا حال من عنده مصباح، فكيف حال جماعةٍ منهم كانوا لا يجدون مصابيح، فكانوا يطلبون العلم ويقرئون دروسَهم يستعينون بنور القمر، نور القمر! قال لي الشيخ جعفر العَتْمِي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– عضو هيئة كبار العلماء، قال لي: إن أكثر ما درست أثناء قراءتي علىٰ المشايخ في المدرسة الحفظية بـ"رجال ألمع" أكثرُ ما درست علىٰ ضوء القمر، يقول: لأنَّ الزيتَ كان عندنا قليلاً، ومات –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– وهو من فقهاء المذهبين، فكان شافعيًّا حنبليًّا ويحفظ متون هذا المذهب ومتون هذا المذهب، ما كان عندهم كهرب

مثل هذه الكهرب، وهذا من زماننا يعني ليس بعيداً، هو مات من سُنيِّاتٍ قريبة، فالمقصود أن من اجتهد فإنه يُحصِّل، ومثلُ هٰؤلاء إذا اعتبرت أحوالهم علت همَّتُك.

ثم قال: (فكن رجلاً رِجله علىٰ الثرىٰ ثابتة) أي: علىٰ الأرض، (وهامة همته) أي: أعلىٰ هِمَّته، فالهامة أعلىٰ الرأس، (فوق الثريا سامقة) والثريا نجمٌ في السماء، (ولا تكن شاب البدن) أي: قويـًا موصوفًا بكونك في حال الشباب في بدنك، (أشيب الهِمَّة) أي: موصوفًا بالكِبَر والعجز في هِمَّتك، فإن الأشيب اسمٌ للشيخ الكبير، ولا يُسمَّىٰ شايبًا في أصحِّ قولي أهل العلم، قال: (فإن همة الصادق لا تشيب) أي: من كان صادقًا في ابتغاءِ مطلوبه لا تشيب هِمَّته ولو علاه الشيب، ولو ضَعُفَ بَدَنُه، ولو كَلَّت يده وضعفت رجله، فإنه لا تزال هِمَّتُه تحركه، وربما حركته أعظمَ مما تُحرِّك الأبدان أصحابها، فترىٰ فينا معشر الشباب من هو قويُّ البدن، لكن لا ترىٰ من أحواله ما يُرىٰ من أحوال أُناسٍ هم أكبر منَّا سِنًّا، اعتبروا أحوالهم في طلب العلم، واعتبروا أحوالهم في العمل بالعلم، واعتبروا أحوالهم في الصلاة، واعتبروا أحوالهم في الصدقة، واعتبروا أحوالهم في الصيام، تجدوا أن لهم من تحصيل الكمالات مع كِبَر سنهم ما ليس عندنا مع وجود النشاط فينا في سِنِّ الشباب.

ثم ذكر بيتين لطيفين في ذلك عن أبي الوفاء ابن عقيل -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الرابع:

صرف الهمة فيه إلىٰ علم القرآن والسنة.

فإن كل علمٍ نافعٍ مرده إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إما خادمٌ لهما؛ فيؤخذ منه ما تتحقق به الخدمة، أو أجنبيٌ عنهما؛ فلا يضر الجهل به.

وما أحسن قول عياضٍ اليَحصُبيِّ في كتابه «الإلماع»:

العلـم في أصـلين لا يعـدوهما ... إلا المضـل عـن الطريـق اللاحـب
علـم الكتـاب وعلـم الآثـار التي ... قـد أسـندت عـن تـابعٍ عـن صـاحبِ

وقد كان هذا هو علم السلف –عليهم رحمة الله– ثم كثر الكلام بعدهم فيما لا ينفع، فالعلم في السلف أكثر، والكلام فيمن بعدهم أكثر.

قال حماد بن زيد: قلت لأيوب السَّختَياني: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر».

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد الرابع من معاقد تعظيم العلم، وهو: (صرف الهمة فيه) أي: توجيه الهمة فيه، (إلىٰ علم القرآن والسنة) فالهمة التي ابتُغيَ جمع النفس فيها ينبغي أن تتوجه إلىٰ طلب علم القرآن والسنة، وعلَّله بقوله: (إنَّ كل علمٍ نافعٍ مرده إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ) فالعلم الذي يُرجىٰ نفعه في الدنيا والآخرة هو العلم الذي يُردُّ إلىٰ أصله في كلام الله وكلام الرسول ﷺ.

ثم ذكر أنَّ باقي العلوم لا يخرج عن أحد نوعين:

الأول: أن يكون خادمـًا للكتاب والسنة.

والآخر: أن يكون أجنبيًّا عنهما.

فأمَّا الخادمُ لهما فالحال معه هي المذكورة بقوله: (فيؤخذ منه ما تتحقق به الخدمة) أي: ما يكون معينـًا علىٰ فهم الكتاب والسنة.

وأما النوع الآخر وهو الأجنبيُّ عنهما؛ أي: البعيدُ عنهما، فلا يضرُّ الجهل به، فمثلاً: علمُ النحو، أو أصولِ الفقه، هما علمان خادمان لفهم الكتاب والسُّنَّة، فيؤخذ منهما ما تتحقق به الخدمة؛ أي: ما

يحصل به فهم الكتاب والسنة، دون فضولهما من شذور المسائل والفروع التي لا يُنتفعُ بها في فهم الكتاب والسنة.

ومن العلوم ما يكون أجنبيًّا كليّةً عن الكتاب والسنة، فلا يَضرُّ الجهل به، كعلم المنطق، أو الفلسفة، أو الأنساب، أو علم الأرض، أو غيرها من العلوم.

ثم ذكر بيتين للقاضي عياض اليحصبي من فقهاء المالكية في كتابه "الإلماع" أنه قال:

العلم في أصلين لا يعدوهما إلا المضل عن الطريق اللاحب

علم الكتاب وعلم الآثار التي قد أسندت عن تابعٍ عن صاحبِ

"اللاحب" هو: الواضح.

ثم قال: (وقد كان هذا هو علم السلف – عليهم رحمة الله – ثم كثر الكلام بعدهم فيما لا ينفع) أي: كان علمُ الكتاب والسنة هو العلمُ الشائعُ الذائعُ عند السلف.

(والكلام فيمن بعدهم أكثر) أي: توسيعُ البيان فيما لا يُحتاجُ إليه هو فيمن بعدهم أكثر.

(قال حماد بن زيد: قلت لأيوب السَّختياني: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟) أي: في زمان أتباع التابعين، (فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدَّم أكثر») فكانت معارف السلف مع قلة ألفاظها تشتمل علىٰ جليل المعاني ما لا يكون في كلام المتأخرين، وأشار إلىٰ هذا ابنُ القيم في "مدارج السالكين"، وابنُ أبي العز في "شرح الطحاوية" بما لخَّصه ثانيهما بقوله: "كلامُ السلف قليلٌ كثيرُ البركة، وكلام المتأخرين كثيرٌ قليلُ البركة". فالكلام الذي كان للسلف قليل لكنَّه كثير البركة، والكلام الذي للخلف هو كثير لكنَّه قليل البركة، واقرأ في هذا كتابًا نافعًا يحسُن بطالب العلم أن يقرأه مرةً بعد مرة، وهو كتاب "فضل علم السلف علىٰ علم الخلف" للحافظ أبي الفرج ابن رجب –رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ–، فإنه كتابٌ نافعٌ في بيان هذا الأصل الذي إذا تغرغرت به الروح، وامتلاءت به النفس، علمت أنَّ إمعان النظر، وتقليب الفِكَر في معاني الكتاب والسُّنَّة هي المطلوبةُ من العبد، فالعلوم التي نسعىٰ فيها ينبغي أن تكون الغايةُ منها أن توصلنا إلىٰ فهم الكتاب والسنة، لأن من فَهِم الكتاب والسنة فهم مراد الله ومراد رسوله ﷺ مِنَّا، ولهذا ذكر ابن القيم في "الفوائد": أنَّ أعلىٰ همم طلب العلم فهمُ مرادِ الله ومرادِ رسوله ﷺ. فأنت تلتمس العلم كي يوصلك إلىٰ أن تفهم الكتاب والسنة، فإذا رمقت علوم الكتاب والسنة تأسفت علىٰ

كثيرٍ من زمانك الذي فات وأنت لا تشتغل بعلم الكتاب والسنة، وإذا رأيت ما في دواوينهم -رحمهم الله- مما كانوا يستنبطونه من علم الكتاب والسنة ثم رأيت حالنا ذكرت بصدق قول ابن المبارك:

لا تأتين بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيحُ إذا مشىٰ كالمُقعد

ذكر ابن حجر -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ-: أنَّ ابنَ المنذر صنَّف كتاباً في فوائد حديث جابر في حجة النبي ﷺ فذكر فيه ألف فائدة.

وفي كتاب "أحكام القرآن" لأبي بكر ابن العربي عند آية الوضوء أنه تذاكر هو وأصحابه -يعني من المالكية- في بغداد المسائل المستنبطة من آية الوضوء فبلغوا بها أكثر من ثمانمائة مسألة.

وذكر ابنُ القيم في "الجواب الكافي": أن في قصة يوسف أكثر من ألف فائدة.

وذكر ابنُ القيم -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- في كتابه "في الرد علىٰ الجهمية": أن في القرآن والسنة أكثر من ألف دليل علىٰ علوِّ ﷻ.

وذكر في "روضة المحبين": أن في القرآن أكثر من مائة آية تدلُّ علىٰ أنَّ الله ﷻ يُحِبُّ ويُحَبُّ.

فإذا رأيت هذه المعارف المستنبطة من الكتاب والسنة ثم رأيت حالنا فهمت بصدقٍ قولَ ابن المبارك:

لا تأتين بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيحُ إذا مشىٰ كالمُقعد

وحملك ذلك علىٰ أن تجمع نفسك في أن تسير بسير القوم، وأن تطلب فهم الكتاب والسنة، وأن تعلم أن أعظم العلم هو علم الكتاب والسنة، وأن ما دون ذلك من البيان الذي يشتغل به الناس في العقائد أو في الأحكام أو في غيرها ليس شيئاً لمن ذاق لذة الاستنباط من الكتاب والسنة، ولهذا تأسَّف كُمَّل العلماء علىٰ فوات زمانهم في غير الكتاب والسنة.

وفي أخبار أبي العباس ابن تيمية أنه لمَّا كان في السجن تأسَّف علىٰ فوات أكثر عمره في غير تفسير القرآن الكريم.

وفي آخر عمر حياة شيخ شيوخنا محمد الأمين الشنقيطي -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- تكلم معه بعض أصحابه في مسائل في الحج في صحيح مسلم فأفاض في الجواب عنها ثم قال: كم ضيَّعنا من الزمان في غير فهم السنة النبوية!؟ وكان -رَحِمَهُ اللهُ- عقد العزم علىٰ أن يبتدئ بعد ذلك الكلام علىٰ معاني الأحاديث النبوية في صحيح البخاري ومسلم خاصَّةً، ثم مات -رَحِمَهُ اللهُ- قبل أن يُصيبَ ما رامه من هذا، لكنَّه يُبيِّنُ لك بصدق

التأسف والأسىٰ الذي يجده من كَمُلت حاله علىٰ تضييعه لما مضىٰ من زمانه في الكتاب والسُّنَّة، وهذا لا يُنْشِيءُ في نفوسنا اليأس ولكنَّه يسوقنا بشدَّة أن نجتهد في الوصول إلىٰ المطلب الأعظم وهو فهم الكتاب والسنة، وأنَّ العلم الأعظم الذي تُنفق في الأعمار وتُدفع فيه الأموال هو علم الكتاب والسنة، وأن نظرك في معاني آية مرةً بعد مرةٍ بعد مرةٍ بعد مرةٍ خيرٌ لك من أن تقرأ مائة كتاب من غير كتاب الله ﷻ.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الخامس:

سلوك الجادة الموصلة إليه.

لكل مطلوب طريق يوصل إليه، فمن سلك جادة مطلوبه أوقفته عليه، ومن عدل عنها لم يظفر بمطلوبه، وإن للعلم طريقًا من أخطأها ضل ولم ينل المقصود، وربما أصاب فائدة قليلة مع تعبٍ كثير.

وقد ذكر هذا الطريق بلفظ جامعٍ مانعٍ محمدُ مرتضىٰ بن محمد الزبيدي – صاحب «تاج العروس» – في منظومة له تُسمىٰ «ألفية السند»، يقول فيها:

فما حوىٰ الغاية في ألف سنه شخصٌ فخذ من كل فن أحسنه
بحفظ متنٍ جامعٍ للراجح تأخذه علىٰ مفيدٍ ناصح

فطريقُ العلم وجادَّتُه مبيَّنةٌ علىٰ أمرين، من أخذ بهما كان معظمًا للعلم؛ لأنه يطلبه من حيث يمكن الوصول إليه:

فأما الأمر الأول: فحفظ متنٍ جامع للراجح، فلابد من حفظ، ومن ظن أنه ينال العلم بلا حفظ فإنه يطلب محالاً.

والمحفوظ المعول عليه هو المتن الجامع للراجح؛ أي المعتمد عند أهل الفن.

وأما الأمر الثاني: فأخذه علىٰ مفيدٍ ناصحٍ، فتفزع إلىٰ شيخٍ تتفهَّم عنه معانيَه، يتصف بهذين الوصفين:

وأولهما: الإفادة، وهي الأهلية في العلم، فيكون ممن عُرف بطلب العلم وتلقيه حتىٰ أدرك، فصارت له ملكةٌ قويةٌ فيه.

والأصل في هذا ما أخرجه أبو داود في «سننه» بإسنادٍ قويٍّ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: «تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يسمع منكم».

والعبرةُ بعموم الخطاب، لا بخصوصِ المخاطب، فلا يزال من معالم العلم في هذه الأمة أن يأخذه الخالفُ عن السالف.

أما الوصف الثاني فهو النصيحة، وتجمع معنيين اثنين:

أحدهما: صلاحية الشيخ للاقتداء به، والاهتداء بهديه ودَلِّه وسمته.

والآخر: معرفته بطرائق التعليم، بحيث يُحسنُ تعليمَ المتعلم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضره، وَفق التربية العلمية التي ذكرها الشاطبي في «الموافقات».

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد الخامس من معاقد تعظيم العلم، وهو: (سلوك الجادة الموصلة إليه) أي: الأخذ بالطريق التي تؤدي إليه، وعلَّله بقوله: (لكل مطلوب طريق يوصل إليه) أي: من رام الوصول إلىٰ شيءٍ يلتمسه فإنه يجب عليه أن ينظر في الطريق التي تدفع به للوصول إلىٰ ذلك المطلوب، (فمن سلك جادة مطلوبه أوقفته عليه، ومن عدل عنها لم يظفر بمطلوبه) والعلم واحدٌ من تلك المطلوبات فله طريقٌ لا بدَّ من سلوكها قطعًا، قال: (وإن للعلم طريقًا من أخطأها ضلَّ ولم ينل المقصود، وربما أصاب فائدة قليلة مع تعبٍ كثير) فالذي يَتِيهُ عن طريق العلم فإنَّ له حالين:

الحال الأولىٰ: ألا ينال مقصوده من العلم.

والحال الثانية: أن يصيب فائدةً قليلة مع تعبٍ كثير، وهذا أمرٌ مشاهدٌ فينا، فتجدُ أن الضلال الفاشي في طريق العلم وما أحدثه الناس من أشياء يظنون أنَّها توصل إلىٰ العلم لم تكن من طريق شُداة العلم وأهله وواصفيه من قبل = أنَّها أنتجت في الناس ضعفَ العلم، فصاروا يُمضون مدةً طويلةً في ابتغاء العلم، فإمَّا ألا ينالوا منه شيئًا، وإمَّا أن يكون نولهم منه قليلاً مع تعبٍ كثيرٍ أنفقوه من أزمانهم وقواهم وأموالهم.

ثم قال: (وقد ذكر هذا الطريق بلفظ جامعٍ مانعٍ محمدُ مرتضىٰ بن محمد الزبيدي – صاحب «تاج العروس» – في منظومة له تُسمىٰ «ألفية السند»، يقول فيها:

فما حوىٰ الغاية في ألف سنه ... شخصٌ فخذ من كل فن أحسنه
بحفظ متنٍ جامعٍ للراجح ... تأخذه علىٰ مفيدٍ ناصح)

فطريق العلم كُلُّه مُدَّخرٌ في هٰذين البيتين، فمن أخذ هٰذه الطريق نال العلم وعظَّمه، ومن عدل عنه إلىٰ غيرها فإنه لا يصل إلىٰ العلم، وهذه الطريق مؤسسةٌ علىٰ أمرين:

أحدهما: حفظ متنٍ جامعٍ للراجح، فلابد من حفظ، ومن ظن أنه ينال العلم بلا حفظ فإنه يطلب محالاً، قال شيخ شيوخنا محمد ابن مانع في "إرشاد الطلاب": (لا شكَّ عند العقلاء أنَّ العلم لا يُنالُ إلا بحفظ)، وهذا أمرٌ دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة؛ علىٰ ما بُيِّن في مقام آخر.

ثم ذكر ما ينبغي أن يُعوَّل عليه من الحفظ فقال: (والمحفوظ المعول عليه هو المتن الجامع للراجح) وفسَّر الراجح بقوله: (أي المعتمد عند أهل الفن) فإن المتون المعتمدة عند أرباب العلوم هي الحاويةُ للمستقرِّ عندهم في هذا العلم، فإذا قصدت إلىٰ متن جامعٍ للراجح في النحو وجدت مبتدأه في المقدمة الآجُرَّاميَّة ومنتهاه في ألفية ابن مالك، لا يستريبُ نحويٌّ أن النحو لا يُنال إلا بهٰذين المتنين مبتدأً ومنتهىٰ، أو ما كان في معناهما، فإذا عمد مبتغي العلم إلىٰ متنٍ مفترعٍ آخر مما افترعه الناس ممن تقدم أو تأخر لم يُعتمد عند أهل العلم فإنه ينفق فيه زمنـًا يخرج منه خاليَ الوُفَاض قليلَ الغنيمة من هذا العلم، ولهذا يجب علىٰ طالب العلم أن يأخذ فيما يدرسه من العلوم وأصولها بما كان عليه أهل الفنون، فإذا أراد أن يزيد فوق ما هم عليه شيئـًا فلا بأس بذلك، أما أن يأتي الطالب فيقول: أنا لا أبتدئُ بأصول الفقه بكتاب الورقات ولا أدرس هذا ولا ذاك ولا ذاك ولكنِّي أقرأُ كتاب "الرسالة" فإنَّ كتاب الرسالة هو أول كتاب صُنِّف في علم أصول الفقه، قال في "المراقي":

أولُ مـن صـنَّفهُ في الكُتُـبِ   محمـدُ ابـنُ شـافعِ المُطَّلِبِـي

ويأتي في النحو فيقول: أنا لا أطلبُهُ من "الآجُرَّاميِّة" و"الألفية" ولكنِّي أطلبه من "الكتاب" لسيبويه، وهلم جرًّا، فمثل هذا يغرُّ نفسه لأنَّ هذا العلم الذي تريد أن توغل فيه لستَ أنتَ أولَ طارقٍ بابه، فالعاقل لا يدخل الدور إلا من البيوت التي جُعلت لها، والعلمُ دارٌ عظيمة دخلها من هو أعظم منك ومن أبيك، فحقيقٌ بك أن تسلك السبيل التي سلكوها، وأن تنظر فيما أخذوا به من العلم والجادة التي اختاروها من أصوله ودواوينه فتتمسك بهذا الأصل، فإذا زدت شيئـًا عليهم فإنَّ الزيادة من الخيرِ خير، لكنَّ العدول عن طريقهم واستحسان طريقٍ أُخرىٰ يُضِرُّ طالبَ العلم ضرراً كثيراً.

ثم ذكر –رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ– الأمر الثاني وهو: (أخذه) يعني: العلم، (علىٰ مفيدٍ ناصحٍ) لأن العلم لا يؤخذ من الكتب وإنما يؤخذ من أهله، وهذه خصيصة جعلها الله ﷻ لعلم هذه الأمة وشاهده في الحديث (قوله ﷺ: «تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يسمع منكم». والعبرة بعموم الخطاب، لا بخصوص المخاطب) أي: الذين كانوا وهم الصحابة ﵃، فمن معالم العلم في هذه الأمة أن يأخذه الخالف عن السالف، ومن ظن أنه يأخذ العلم من كتاب وما في معناه كالأجهزة المعاصرة فهذا يخدعُ نفسه، فإنَّ اللهَ جعل سنةً ثابتة أن العلم في هذه الأمة يُتلقىٰ عن الرجال، فمن أراد أن يُهدىٰ إلىٰ العلم فلا بدَّ أن يأخذه عنهم، فإذا ظنَّ أنه يأخذه عن غيرهم كالدواوين المصنَّفة فإن علمه يكون ناقصـًا، ورُبَّما أوقعه في

الضلال، وهذا أمرٌ رأيتُه وسترونه لمن عقل هذا الأصل، سترونه في تقلُّبات الأيام فيمن عرفتموه، فإنِّي أذكر رجلاً كان يقرأ في مكتبته أربعَ عشرة ساعة ولكنَّه لم يكن يحضر درسًا لأحدٍ من العلماء، وكان قريبًا من بيته تُعقد الدروس لجماعة من الأكابر، فما هي إلا سنينٌ تقلَّبت ثم تقلَّبت فإذا هو يكتب الضلال في الجرائد وأخواتها، هذا الرجل الذي آتاه الله الجلدَ في قراءة العلم وتحصيله من الكتب أضلَّ نفسه بما سار عليه، ولو هُدي إلىٰ سواء السبيل لعلم أنه مهما أُوتي من ذكاء وفطنة وحفظ وفهم إلا أن الله ﷻ جعل سنة جارية لا تتخلف، وهو أن العلم النافع الذي تنال به النور الهادي إلىٰ الصراط المستقيم هو أن تسمع العلم ممن أخذه من أحدٍ سمعه عنه، العلم في هذه الأمة ليس أبتر، العلم في هذه الأمة لا يأتي من الجدران، العلم في هذه الأمة لا يؤخذ ممن لم يُعرف بالطلب، لأن الغائلة التي تنتج من ذلك أثرها وخيم علىٰ أحدنا وعلىٰ الناس من بعده، فمن أراد أن يحصِّل العلم فلا بدَّ أن يأخذ العلم عن أهله، ومن خصائص أوصافهم المذكور هـٰهُنا بقوله: (يتصف بهذين الوصفين: وأولهما: الإفادة..... وثانيهما: النصيحة) فأما الإفادة فقال: (وهي الأهلية في العلم) يعني أن تكون له قدرةٌ في العلم ومعرفةٌ له وملكةٌ قائمةٌ في نفسه في تحصيله، فيكون موصوفًا بهذا العلم الذي يُرادُ أن يُنال عنه، فلا يؤخذُ علمٌ ما عن رجلٍ غيرِ معروفٍ بأنه من أهله.

ثم قال: (أما الوصف الثاني فهو النصيحة، وتجمع معنيين اثنين: أحدهما: صلاحية الشيخ للاقتداء به، والاهتداء بهديه ودَلِّه وسمته.) أي: كونه ممن عُرف بغلبةِ طاعاته علىٰ معاصيه، وحسناته علىٰ سيئاته، لا أنه لا يعصي الله ولا يصدر منه خطأ، فإن الخطأ مقسومٌ علىٰ كلِّ ابن آدم، إذ الآدميةُ لا تتحقق إلا بوجود الخطيئة، قال أبو العباس ابنُ تيمية الحفيد في "التدمرية": من أذنب فندم فتاب فقد أشبه أباه، ومن أشبه أباه فما ظلم. انتهىٰ كلامه. يعني: أشبه أباه الأول وهو آدم عليه الصلاة والسلام، وفي صحيح مسلم في الحديث الإلـٰهي حديث أبي ذر: (يا أيها الناس إنكم تذنبون –متىٰ؟– في الليل والنهار)، فالذنب مقسومٌ علىٰ ابنِ آدم، وفي حديث أنس عند الترمذيِّ وفيه ضعف وحسَّنه جماعة: (كلُّ بني آدم خطَّاء)، فالخطيئة مقسومةٌ علىٰ العبد، والعالمُ كغيره يخطئُ وتقعُ منه الزلة، ولكنَّ الحال المطلوبةَ عند الاقتداء هو أن تكون حاله صالحة بكثرة حسناته، وغلبة طاعاته، والإشارةِ إليه بذلك، فإذا وقعت منه زلة فهي زلة عالم قد كتبها الله علىٰ كلِّ أحد، وهذه الزلة قد تكون في العلم وقد تكون في العمل، بعض الإخوان يقول: رأيت واحد من المشايخ يفعل كذا وكذا، فكان ماذا!؟ هو بشر يخطئ ليس معصومًا، وبعض المشايخ

يقول: الشيخ فلان قال: كذا وكذا، كيف يقول الكلام هذا وهو يخالف قول الله تعالىٰ؛ والحديث الفلاني عن النبي ﷺ؟ هو بشر يُخطئ، ولذلك تجد من سَنن العلماء في معاملة العلماء في أخطائهم ما لا تراه اليوم فينا، فتجد أحدَنا إذا وجد عالمـًا من العلماء أخطأ أكله بلسانه؛ وكأن حاله اعتقادُ عصمة العلماء، وهذا لم يقل به أحدٌ من أهل السنة أنَّ العلماء معصومون، فالعلماءُ يُخطئون وإذا بدر منهم شيء فإنهم يُعاملون بحقهم الذي جعله الله ﷻ علينا.

ثم قال ذاكراً المعنىٰ الآخر قال: (والآخر: معرفته بطرائق التعليم) أي: كيفية إيصال العلم إلىٰ الخلق، (بحيث يُحسن تعليم المتعلم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضره، وَفق التربية العلمية التي ذكرها الشاطبيُّ في «الموافقات») فإنَّ العلم شيء ومعرفة كيفية إيصاله إلىٰ الخلق شيءٌ آخر، والناس يتفاضلون في هذا، فمن لُمس منه أنه يُحسن إيصال العلم إلىٰ المتعلمين فهذه من خصائص أخذِ العلم عنه مُرَجِحَةً له علىٰ غيره، وهذا واقعٌ في حال جماعة تجدُ أنك تأتي فتقرأ عليه في النحو فيُفتح لك، أو تقرأ علىٰ هذا في الفرائض فيُفتح لك، أو تقرأ علىٰ هذا في القراءات فيُفتح لك، ولا يكون هذا عند غيره، لأن كلَّ واحدٍ من هٰولاء يُحسِنُ إيصال العلم إلىٰ المتعلم، وغيرُه ممن يوصف بالعلم والإفادة في هذا الفن أو ذاك ليس له من المهارة في إيصال العلم كما لذاك، فيوجد الانتفاع في الناس بهٰولاء ربما أكثر من الانتفاع بمن هم أعلىٰ كعبًا منهم في العلم، فإن الله ﷻ قسم هذه الأمور بين الخلق قال تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢] فالمعيشة الظاهرة والباطنة مقسومة بين الناس بما يهيئُ الله ﷻ لهم من الأسباب، فإذا أردت أن تبتغي العلم بالطريق التي توصلك فلا بدَّ من حفظٍ للعلم، ولا بدَّ من أخذٍ عن معلم، والذي يكون محلاً للحفظ هو المحفوظ المعتمد عن أرباب الفنون، والذي يكون أهلاً لأخذ العلم عنده هو الجامع للوصفين: الإفادة، والنصيحة.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد السادس:

رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهم فالمهم.

قال ابن الجوزي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– في «صيد خاطره»:

«جمع العلوم ممدوح».

من كل فن خذ ولا تجهل به   فالحرُّ مطلع على الأسرار

ويقول شيخ شيوخنا محمد بن مانعٍ –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– في «إرشاد الطلاب»:

«ولا ينبغي للفاضل أن يترك علمًا من العلوم النافعة، التي تُعين على فهم الكتاب والسنة، إذا كان يعلم من نفسه قوةً على تعلمه، ولا يَسوغ له أن يعيب العلم الذي يجهله ويُزري بعالمه؛ فإن هذا نقصٌ ورذيلة، فالعاقل ينبغي له أن يتكلم بعلمٍ أو يسكت بحلمٍ، وإلا دخل تحت قول القائل:

أتاني أن سهلاً ذم جهلاً   علومًا ليس يعرفهن سهل

علومًا لو قراها ما قلاها   ولكن الرضا بالجهل سهل

انتهى كلامه.

وإنما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

أحدهما: تقديم الأهم فالمهم، مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله.

والآخر: أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصر في كل فن، حتى إذا استكمل أنواع العلوم النافعة؛ نظر إلى ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرةً عليه، فتبحَّر فيه، سواء كان فنًا واحدًا أم أكثر.

ومن طيِّار شعر الشناقطة قول أحدهم:

وإن تُرِد تحصيل فنٍّ تمِّمَه   وعن سواه قبل الانتهاء مه

وفي ترادف العلوم المنع جا   إن توأمان استبقا لن يخرجا

ومن عرف من نفسه قدرة على الجمع جمع، وكانت حاله استثناءً من العموم.

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد السادس من معاقد تعظيم العلم، وهو: (رعاية فنونه في الأخذ) أي: الاعتناء بفنون العلم في أخذها وجمعها وتحصيلها مع ملاحظة (تقديم الأهم) أي: شديد الأهمية على ما هو دونه فيها.

ثم ذكر المصنف جُملاً من القول عن جماعة من العلماء في بيان ذلك وتأييده، وكان مما ذكر قول ابن مانع: (ولا ينبغي للفاضل أن يترك علمًا من العلوم النافعة، التي تُعين علىٰ فهم الكتاب والسنة، إذا كان يعلم من نفسه قوةً علىٰ تعلمه) فمِنْ مَحاسِن المسالك في جمع العلم حرصك علىٰ الاعتناء بفنونه.

ثم نبَّه علىٰ آبدةٍ سيئةٍ وهي عيبُ العلوم التي لا يدريها متعاطي العلم إذ قال: (ولا يَسوغ له أن يعيب العلم الذي يجهله ويُزري بعالمه؛ فإن هذا نقصٌ ورذيلة) فإن من أرباب الفنون من يَبْرَعُ في فنٍّ دون آخر فتجد في قوله الحطَّ من العلوم التي لا يُحسِنُها، وهذه آبدةٌ تُضره في نفسه وتُضرُّ مَن حوله ممن يلتمسُ العلم عنه، وإذا سمع الإنسانُ شيئًا من هذا فإنَّه ينبغي أن ينظر إلىٰ حالِ من سبق، فإذا رأيت رجلاً يُتقِنُ أصول الفقه ثم يعيب النحو؛ فاحمد له عنايته بأصول الفقه لكن لا تأخذ منه عيبَه النحو، فإنَّ عيبَه النحو رأيٌ له خالف به جمهور الأُمة في أخذهمُ العلم، وكذا في غيره من العلوم، وهذه من الخطيئات التي يؤذي بها بعضُ المشايخ الآخذينَ عنهم فتجدهم يحطُّون في نفوسهم من علمٍ لا يعرفونه أو لا يُحسنونه ثم يدَّعون أُموراً لتبعيد نفوس الطلبة عنه، وإذا وقع لك مثلُ هذا فاعتبر فيما يُشكلُ عليك من العلم ما كان عليه من مضىٰ، فإذا رأيتَ نجديًّا يقول لك: إنَّ القراءاتِ علمٌ لا ينبغي إضاعة الوقت فيه؛ فلا تأبه بقوله، فإنه قد ترك ما كان عليه أجداده، فإن أجدادنا في هذا القطر كانوا عندهم القراءات العشر من أئمة الدعوة النجدية فضلاً عمَّن كان دونهم، فكان الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ممَّن قرأ القراءات العشر، وكان الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن سلطان بن خميس أبا بطين –رَحِمَهُ اللهُ– ممَّن قرأ القراءات السبع، وكان يُصلِّي كلَّ ليلة في صلاة العشاء برواية من تلك الروايات، فالضعف الذي يكون في علمٍ ما في قُطرٍ في حالٍ من الأحوال وُجود الدعوة إليه لا يعني أنه صوابا، كمن لو رأيت غيره يقول: لا ينبغي الاعتناء بعلم الحديث لأن الأحاديث قد حَكم عليها الحُفَّاظ، فلا تجعل نفسك نُهْبًا لكلِّ من يتكلم في العلم، لكن استرشد بمن مضىٰ، فإن من مضىٰ في اجتماع أحوالهم ما يهديك إلىٰ العلم.

ثم ذكر المُصنِّف أنه إنما تنفعُ رعايةُ فنون العلم باعتماد أصلين:

(أحدهما: تقديم الأهم فالمهم) وبيَّن كيفية ترتيب المهمات بقوله: (مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله) فالأهمُّ في حقك ما يتعلَّقُ بالعبودية التي كتب الله ﷻ عليك، وبيانُ ذلك واضحًا جليًّا في حال من يقصد إلىٰ درسٍ في النحو وهو لم يتعلم بَعْدُ ما يُصحِّحُ به وضوءَه وصلاتَه، فإن هذا فرَّط فيما تتعلق به ذِمَّته من العلوم بعدوله عن الأهم في حقِّه إلىٰ ما هو دونه في الأهميَّة، فإذا أردت أن

تعرف مرتبة ما تلتمسه من العلم بخصوص نفسك فانظر للعبودية المطلوبة منك، فإذا رأيت أن هذه العبودية التي تُطلب منك قد قصّرت فيها في أمرٍ ما فالتمس سداد هذا الثغر، وإذا عقل ملتمسُ العلم هذا الأصل عرف مراتب ما يطلب ولم يستهون بشيءٍ منها، وأذكر مثالاً آخر: أنَّ كثيراً من طلبة العلم تجدُهم لا يرفعون رأسًا إلىٰ الأذكار والأدعية، فتجدُ أحدَهم يحفظ الآجُرَّاميَّة، ويحفظُ نُخبة الفِكَر، والورقات، وغيرها من المتون، فإذا سألتَه هل حفظتَ مختصراً في الأذكار والدعاء؟ ايش الرد يجيك؟ يقول: ما عرفنا المشايخ يقولون فيه متن في الأذكار والأدعية، إذاً لماذا صَنَّف الحُفَّاظ عمل اليوم والليلة؟ عمل اليوم والليلة للنسائي، وعمل اليوم والليلة لابن السُّنِّي، وكتاب الأذكار للنووي، وغيرها؟ لأن هذا مطلوب من العبد، وهذا أولىٰ المطالب، كيف يطلب العلمَ عبدٌ لا يعرفُ كيفيةَ ذكر الله ﷻ؟ والنبي ﷺ يقول في حديث أبي موسىٰ في الصحيحين: (مثلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مثلُ الحيِّ والميت)، الإمام مالك –رَحِمَهُ اللهُ– سأله رجلٌ عن مسألة؛ قال: تعرف ما تقول إذا أصبحت؟ قال: لا، قال: تعرف ما تقول إذا أمسيت؟ قال: لا، قال: اذهب فتعلَّم هذا، ونحن الطلبة يأتي ما يعرف أذكار الصباح والمساء ثم يدخل في هذه العلوم التي لم يترشَّح لها بعد، فإذا أردت أن تعرف منزلتك من العلم فيما تطلبه فانظر ما يُبتغىٰ فيك من العبودية، وكانت الطبقة المتقدمة من الأشياخ يُلاحظون هذا في الطلبة، فيُرقُّونهم شيئًا فشيئًا فيما يلزمهم من العبوديات.

ثم ذكر الأمر الآخر فقال: (أن يكون قصده في أول طلبه تحصيل مختصر في كل فن) فإن سبيل جمع العلم أن تَعْمَدَ إلىٰ مختصراتٍ في كلِّ فن من الفنون فتأخذها حفظًا وفهمًا وتُتقنَها، ثم بعد ذلك تنظر إلىٰ ما يوافق طبعك وما تؤنس قدرةً عليه فتتبحرُّ فيه، فالإنسان إذا تلقَّىٰ في كلِّ فنٍّ من الفنون شيئًا مختصراً حصل له تصورٌ عامٌّ –كما يُقالُ– للعلم، ثم بعد ذلك لاحَظَ نفسَه في أيِّ علمٍ تجدُ لذَّتَها وقوتها فعند ذلك جمع نفسَه عليه، كما لو قُدِّر أنَّ أحدَنا تلقَّىٰ المتون الدارجة في هذا القطر في علم الاعتقاد والفقه والتفسير والحديث والنحو والأصول والقواعد الفقهية ومصطلح الحديث، ثم بعد ذلك وجدَ في نفسه ميلاً إلىٰ علم الاعتقاد، أو وجد في نفسه ميلاً إلىٰ أُصول الفقه، فحينئذٍ لا يُعاب إذا جمع قوته، وكرَّس عُدَّته، في ابتغاء هذا العلم الذي آنسه، لكنَّ العيب أن يأتي للاشتغال بواحدٍ من هذه الفنون لا يدري غيره، فإذا سُئل عمَّا يلزمُ من العلوم، عمَّا يلزم من العلوم! قال: ليس هذا تخصصي! فتسألُه مثلاً: أحسن الله إليك لو أنَّ واحداً توضأ ثم نسي أنه ما مضمض، هل وضوؤه صحيح أو لا؟ سكت، يقول: يشكل عليه

أنه غسل وجهه، وإلا الفرض في الصلاة يعني في آية الوضوء ذكر الوجه ما جاء فيه ذكر المضمضة والاستنشاق، هذه المسألة التي تلزمه هو قبل أن تلزم الخلق تجده لا يُحيط بها علمًا، ثم بعد ذلك ربما اعتذر إليك قال: أنا تخصصي عقيدة، هذا تخصصك تقوله: عقيدة إذا قلتُ لك: رجلٌ طلّق امرأته وعلّق طلاقها علىٰ شيء ثم بان له أن هذا الشيء لم يوجد؟ تقول: تخصصي عقيدة، هذا من العلم الذي قد لا يترشَّح له إلا فقيه اختصَّ بالفقه، لكنَّ العلم العام الذي يلزمك في العقيدة، في الفقه، في الحديث، في التفسير، في أصول الفقه، في المصطلح، في النحو، لن تَنْبُلَ في علمٍ من العلوم تعدُّ نفسك فيه متخصصًا حتىٰ تصيبَ أصلاً حسنًا من كلِّ فنٍّ من الفنون، هذا شيءٌ لا يتخلَّفُ عند الأوائل أبداً، والنقصُ الذي حصل عند المتأخرين هو بسبب مباعدة هذا الأصل وتركه.

ثم ذكر مرشداً بيتين مشهورين لبعض أهل شنقيط؛ وهي قُطرٌ من أقطار المغرب، قال: ومن طيّار شعر الشناقطة، والطيّار من الأبيات هو: البيت الذي لا يُعلمُ قائلُه مما شاع بين الناس.

أحد يذكر البيت اللي قلناه في ضبطه؟

شائعُ الأبياتِ إن لم يُعلمِ قائلُه: الطيّارُ بين الأممِ

يعني هو الموصوف بذلك، والطائر يعني السائر بطيرانه.

قال:

وإن تُرِد تحصيل فنٍّ تمِّمَه وعن سواه قبل الانتهاء مَهْ
وفي ترادف العلوم المنع جا إن توأمان استبقا لن يخرجا

(تمِّمَه) يعني: استكمله، و(مَهْ) أي: انزجر، فكلمة "مه" كلمة تقال للزجر ابتغاء الانتهاء، (وفي ترادف العلوم المنع جاء) يعني: وفي الجمع بين العلوم بجعل بعضها ردفًا لبعضٍ جاء منعه، (إن توأمان استبقا لن يخرجا) يعني: مثاله كامرأةٍ حامل استبقا في بطنها توأمان ليخرجا فضاقَ خروجُ أحدهما عن الآخر بسبب مضايقة الآخر له، فكذلك العلوم ربما تَضيق علىٰ ملتمسها بالجمع بينها.

قال: (ومن عرف من نفسه قدرة علىٰ الجمع جمع، وكانت حاله استثناءً من العموم) فالأصل أن ملتمس العلم يبتدئ بمختصرات الفنون، فيأخذ المختصر حتىٰ إذا فرغ منه انتقل إلىٰ غيره، فإذا فرغ منه انتقل إلىٰ غيره، فإذا فرغ منه انتقل إلىٰ غيره، فإذا أحكم المختصرات ساغ له بعد ذلك إمكان الجمع، لأن القلب في مبتدأ الأمر لا يقوىٰ علىٰ حمل علومٍ مختلفة، فإذا صارت فيه شُعَب؛ في الاعتقاد شعبة،

وفي الفقه شعبة، وفي الحديث شعبة، وفي التفسير شعبة، وفي النحو شعبة، وفي المصطلح شعبة، وفي أصول الفقه شعبة، قويَ القلب فأمكن حينئذٍ أن يجمع ملتمسُ العلم بين علمين وآخرين في ما هو في درجةٍ فوق هذه الدرجة من الابتداء.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد السابع:

المبادرة إلىٰ تحصيله، واغتنام سن الصبا والشباب.

قال أحمد - رَحِمَهُ اللهُ -: «ما شبَّهتُ الشباب إلا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط».

والعلم في سن الشباب أسرع إلىٰ النفس، وأقوىٰ تعلقًا ولصوقًا.

قال الحسن البصري - رَحِمَهُ اللهُ -: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

فقوة بقاء العلم في الصغر، كقوة بقاء النقش في الحجر، فمن اغتنم شبابه نال إربه، وحمد عند مشيبه سراه.

ألا اغتنم سِنَّ الشباب يا فتىٰ ... عند المشيب يحمدُ القومُ السُّرىٰ

ولا يُتوهم مما سبق أن الكبير لا يتعلم، بل هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلموا كبارًا، كما ذكره البخاري - رَحِمَهُ اللهُ - في كتاب العلم من صحيحه.

وإنَّما يعسر التعلم في الكبر - كما بينه الماوردي في "أدب الدنيا والدين" - لكثرة الشواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قدر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم.

ذكر المصنف -وفقه الله- المعقد السابع من معاقد تعظيم العلم، وهو: (المبادرة إلىٰ تحصيله) أي: المسارعة إلىٰ أخذه وجمعه، (واغتنام سِنَّ الصبا والشباب) أي: جعل غنيمة المرء من العلم في الوقت الذي يسعُ لاهتبال ساعته وفرصته، وهو: سِنُّ الشباب والصبا، لأن المرء إذا تقدَّمت عمره كثرت أشغاله، فإذا كثرت أشغاله عظُمت أثقاله، فإذا عظُمت أثقاله ضَعُف سيره، فلا يستطيع السير مع تقدم العمر إلا من كان في مبتدأ أمره قويـًا في أخذه، فيقوىٰ بعد ذلك علىٰ قطع الطريق والترقي في منازله.

ثم ذكر من كلام الإمام أحمد في بيان حال الشباب قال: (ما شبَّهتُ الشباب) أي: السن التي كنت فيها من الشباب، (إلا بشيءٍ كان في كُمِّي) يعني: في طرف ثوبي الذي تُخرجُ منه اليد كان فيها ثم (سقط) كأنه لم يكن، فهو كان لبُرهةٍ من الزمن عالقـًا بطرف ثوبه في أعلاه من جهة اليد ثم سقط منها.

ثم قال: (والعلم في سن الشباب أسرع إلىٰ النفس، وأقوىٰ تعلُّقـًا ولصوقا) فإن سِنَّ الشباب تكون فيها النفس أفرغ، والقلب أنقىٰ وعلائقه أقل، فيكون العلم الموضوع فيه أثبت.

(قال الحسن البصري: العلم في الصغر كالنقش في الحجر) أي: في ثباته وبقائه، فإنك إذا نقشت علىٰ حجرٍ طالت مدة بقاء نقشك.

قال: (فقوة بقاء العلم في الصغر، كقوة بقاء النقش في الحجر، فمن اغتنم شبابه نال إربه، وحمد عند مشيبه سراه.

ألا اغتنم سِنَّ الشباب يا فتىٰ عند المشيب يحمدُ القومُ السُّرىٰ

و(السُّرىٰ) هو السير بالليل.

ثم قال: (ولا يتوهم مما سبق أن الكبير لا يتعلم، بل هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلموا كبارًا، كما ذكره البخاري – رَحِمَهُ اللهُ – في كتاب العلم من صحيحه) فالكبير قابلٌ للعلم قادرٌ عليه، وكان في الأُمَّةِ قديماً وحديثاً من نال العلم مع كِبَرِه، وقَدِرَ علىٰ حفظ ما يعجز عنه قومٌ في صغرهم، فتجد اليوم في زماننا هذا من حفظ العلم من الرجال والنساء وهو قد جاوز الثمانين؛ ابتدأ في الحفظ بعد الثمانين ثم أتَمَّ حفظ الكتاب، بل قبل ذلك اللؤلؤي من أصحاب أبي حنيفة ذُكر في ترجمته أنه لم يطلب العلم –ليس القرآن فقط– لم يطلب العلم إلا بعد الثمانين فما مات حتىٰ استُقضي؛ يعني: حتىٰ صار قاضياً، فطالب العلم لا يوقفه السِّن، ولكنَّ الكِبَرَ يُتخوَّف فيه من كثرة الأشغال.

قال: (وإنما يعسر التعلم في الكبر – كما بينه الماوردي في "أدب الدنيا والدين" – لكثرة الشواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قَدِرَ علىٰ دفعها عن نفسِه أدرك العلم) أي: إذا قَدِرَ الكبير أن يُزيح عن نفسه ما يعتورها من أشغال متكاثرة، وقواطع غالبة، وعلائق ساحبة، فإنه يمكن له أن يُدرك العلم مع الكبر، وهذه الإلماعة فيها تخويفٌ للمشتغل في العلم في سنِّ الشباب مما يستقبله في الأيام القادمة من كثرت أشغاله، ولتعلموا أن أكبر كِذْبة تجري في الناس أنهم إذا صاروا أكبر سناً صاروا أكثر فراغاً، فالطالب الذي يدرس في الجامعة ثم يقلِّل أخذ العلم بالحفظ والفهم ويقول: إذا فرغت من الجامعة أدرس، ليعلم أن ما بعد الجامعة أشغلُ مما في الجامعة، ثم إذا جاء بعد الجامعة فقال: إذا تزوجت أفرغُ للعلم، فليعلم أنه بعد الزواج سيكون أكثرَ شُغلاً، فإذا قال: نُقضِّي سنتين مع الزوجة ثم بعد ذلك نطلب العلم، فليعلم أن ما بعد ذلك هو أشدُّ شُغلاً، فليغتنم ملتمسُ العلم الوقت الذي هو فيه الآن، إن كان لا زال صغيراً فليبدأ، وإن كان ارتفع عن الصغر فليبدأ، وإن كان في سن الجامعة فليبدأ، ولا يؤخر إلىٰ ما بعده لأن ما بعده أشغلُ قطعاً.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثامن:

لزوم التأني في طلبه، وترك العجلة.

إن تحصيل العلم لا يكون جملة واحدة؛ إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإنَّ للعلم فيه ثِقَلاً كثِقَل الحجر في يد حامله.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ﴾ [المزمل:٥]، أي: القرآن، وإذا كان هذا وصف القرآن الميسر – كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ ﴾ [القمر:١٧]-؛ فما الظن بغيره من العلوم؟!

وقد وقع تنزيل القرآن رعاية لهذا الأمر منجمًا مفرقًا؛ باعتبار الحوادث والنوازل، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان:٣٢].

وهذه الآية حجَّةٌ في لزوم التَّأني في طلب العلم، والتدرج فيه، وترك العجلة؛ كما ذكره الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»، والراغب الأصفهاني في مقدمة «جامع التفسير».

ومن شعر ابن النحاس الحلبي قوله – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –:

اليوم شيءٌ وغدًا مثله ... من نُخَب العلم التي تُلتَقطْ
يُحصِّلُ المرء بها حكمةً ... وإنما السيل اجتماع النُّقَطْ

ومقتضىٰ لزوم التأني والتدرج: البداءة بالمتون القصار المصنفة في فنون العلم، حفظًا واستشراحًا، والميل عن مطالعة المطولات التي لم يرتفع الطالب بعدُ إليها.

ومن تعرَّض للنَّظر في المطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، وتجاوز الاعتدال في العلم ربما أدىٰ إلىٰ تضييعه، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرفاعي – أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشام في القرن الماضي-: «طعامُ الكبار سمُّ الصغار».

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد الثامن من معاقد تعظيم العلم، وهو: (لزوم التأني في طلبه، وتركُ العجلة) بأن يأخذه شيئًا فشيئًا، وعلَّله بقوله: (إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإنَّ للعلم فيه ثِقَلاً كثِقَل الحجر في يد حامله) فمن رام أن يحمل حجراً ثقيلاً مع ضعف قواه؛ لم تساعده قواه علىٰ رفع هذا

الحجر، وكذلك حال القلب مع العلم، فإن العلم إذا هُجم به علىٰ القلب دفعة واحدة دون ترقٍ حسنٍ فيه فإنه يؤذي صاحبه وربما استثقله فانصرف عنه، وهذا من وجوه أسباب الانصراف عن طلب العلم، أن ملتمس العلم يسعىٰ إليه ثم يُلقي بقوة العلم علىٰ قلبه فلا تناسب هذا القلب فيستثقله ويتركه.

ثم ذكر من شواهد ذلك أن القرآن وقع تنزيله منجّماً مفرّقاً باعتبار الحوادث والنوازل تحقيقاً لهذا الأصل في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ –أي: مرةً واحدة– كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ –أي: نُرقِّي به هذا الفؤاد إلىٰ الثبات بملئه به شيئاً فشيئاً – وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان:٣٢]

قال: (وهذه الآية حجَّةٌ في لزوم التَّأني في طلب العلم، والتدرج فيه، وترك العجلة؛ كما ذكره الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»، والراغب الأصفهاني في مقدمة «جامع التفسير»).

ثم ذكر بيتين حسنين لابن النَّحاس أوردهما السيوطي في "بغية الوعاة في تراجم النحاة" في ترجمة ابن النَّحَّاس هذا:

اليوم شيءٌ وغداً مثله ... من نُخَب العلم التي تُلتَقطْ
يُحصِّل المرء بها حكمةً ... وإنما السيل اجتماع النُّقَطْ

أي: لا يكون الماء سيلاً دافقاً إلا وقد كان مبتدأهُ قطرةً قطرةً.

ثم ذكر مقتضىٰ لزوم التأني والتدرج، وهو (البداءة بالمتون القصار المصنفة في فنون العلم، حفظًا واستشراحًا) فمن أراد أن يتدرج في العلم متأنياً لزمه الابتداء بالمتون القصار؛ أي: الموجزة، المصنَّفة في فنون العلم علىٰ اختلافها، بالحفظ والاستشراح، فهو يحفظ مبانيها ويفهم معانيها أخذاً عن شيخٍ.

ثم قال: (والميل عن مطالعة المطولات) أي: العزوف عنها، (التي لم يرتفع الطالب بعد إليها) أي: لم يترشح للقراءة فيها، لأنه إذا أوقف نفسه علىٰ هذه المطولات فإمَّا أن يُهلك نفسه، وإمَّا أن يقلَّ نفعه منها، إذ المطولات في العلم بمنزلة الدرجات الرفيعة من المنازل والمساكن فإنه لا يُوصلُ إليها إلا بأن تترقىٰ بدرجٍ يُفضي بك إليها، فكذلك هذه الدواوين المطوّلة لا تصل إليها إلا بأن تأخذ العلم شيئاً فشيئاً من متونه المختصرة حتىٰ تكون لك قوة ثم تنظر في المطولات.

ثم قال: (ومن تعرَّض للنَّظر في المطوّلات فقد يجني علىٰ دينه، وتجاوز الاعتدال في العلم ربما أدىٰ إلىٰ تضييعه) ثم ذكر كلمةً لعبدالكريم الرِّفاعي من علماء الشام أنه قال: (طعام الكبار سُمُّ الصغار) أي: ما

يُطعمُ به الكبار يكون سُمًّا للصغار، فإنك إذا قصدت إلىٰ تقديم طعام يتناوله الكبار من لحمٍ وشحمٍ فأطعمت به رضيعًا قتلته، فكذلك العلم إذا عَمدتَ إلىٰ علمٍ من العلوم أو كتابٍ من الكتب ثم تعاطيته ولم تكن لك آلة في قراءته فإنك تَعْجَزُ عنه لدقةِ مباحثه وافتقارها إلىٰ آلةٍ سابقةٍ، وكان شيخنا عبدالعزيز ابن باز –رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ– ابتدأ تدريس كتاب "درء تعارض العقل والنقل" فلمَّا قُرء منه نحو مائة صفحة أوقف بعد ذلك الدرس؛ لعجز أكثر عقول الحاضرين عن إدراك معانيه، فصار تعاطي مثل هذا الكتاب غيرُ نافعٍ لعمومهم، فمن عقل هذا الأصل عرف أن من ابتغىٰ العلم لا بدَّ أن يترقىٰ شيئًا فشيئًا حتىٰ يصل إلىٰ العلم، وهذه الكلمة المراد بها حُسنُ الترقِّي، فإذا قيل: (طعام الكبار سم الصغار) المراد به: إحسان الترقي في الوصول إلىٰ العلم، وأمَّا من يذكر هذه الكلمة لمنع التلقي؛ فهذا أصلٌ مخالفٌ لطريقة أهل العلم، فإن من الناس من لا يريد أن يؤخذ العلم عن العلماء الكبار، فإذا قيل له: هل نذهب إلىٰ درس فلان؟ قال: فلان من العلماء الكبار؛ لكن طعام الكبار سُمُّ الصغار؛ أي: تلك العلوم والكتب التي تدرس عنده تضر بكم، وقد لا يكون الأمر كذلك، فهذه الكلمة (طعام الكبار سُمُّ الصغار) لها مأخذان:

أحدهما: حُسْنُ التَّرقِّي.

والآخر: مَنْعُ التَّلقِّي.

فأما المأخذ الأول وهو حُسْنُ التَّرقِّي؛ أي: التدرج في العلم للوصول إلىٰ ما يُرادُ منه فهذا أمرٌ أيَّدَتْهُ دلائلُ الكتاب والسنة وكان عليه طريقُ السلف.

وأما مَنْعُ التَّلقِّي بأن يُجعل هذا حاجزاً دون الوصول إلىٰ العلماء الكبار بدعوىٰ أنك لا تفهمُ كلامهم ،أو لا تستفيد من المسائل التي يذكرونها؛ فإن هذا من العوائق التي تمنع العبد من الانتفاع بهٰؤلاء، وسيعلمُ المُفرِّطون في الأخذ عن العلماء الكبار قدر الحسرات التي تكون في نفوسهم إذا ماتوا؛ وتقدَّم هٰؤلاء في العلم، فإن من الشبيبة الناشئة من تكون حاله في العلم ضعيفةً عن الكمال عند وجود الكبار، فتقوىٰ نفسه بعد ذلك فيندم علىٰ تفريطه في أخذ العلم، فالعاقل هو الذي لا يُضيِّعُ الأخذ عن الكبار ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، وأقلُّ ذلك أن يتردد إلىٰ مجالسهم إذا لم يلتزمْها، وكان أهلُ هذا القطر يحرصون علىٰ أخذ أبناءهم الصغار إلىٰ العلماء الكبار في مجالسهم، وكانوا أولٰئك الصغار لا يعون أكثر ما يُقال؛ إن لم يكن كلَّ ما يُقال، لكنَّهم كانوا يتشرَّفون برؤية أولٰئك، فتجد من هو في أسنانٍ ليست كبيرة قد رأىٰ فلانًا وفلانًا وفلانًا من العلماء، فإذا سألته كيف رأيته وكنت حينئذٍ صغيراً؟ فيقول: أنا كنتُ مع

أبي وعمري خمس سنوات أحضر درس فلان، لأن الآباء كانوا يحرصون علىٰ أن يربطوا ناشئة البلد مع العلماء الكبار، وأنه مهما انتُفع بغيرهم فإن الأمر في البركة والنفع هو مع هٰـؤلاء الكبار، فلا يعزل المرء نفسه عن الانتفاع بهم بكلِّ سبيلٍ تؤدي إلىٰ ذلك.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد التاسع:

الصبر في العلم تحملاً وأداء:

إذ كلُّ جليل من الأمور لا يدرك إلا بالصبر، وأعظم شيءٍ تتحمَّلُ به النفس طلب المعالي: تصبيرها عليه؛ ولهذا كان الصبر والمصابرة مأمورًا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارة، ولتحصيل كماله تارة أخرىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

قال يحيىٰ بن أبي كثير في تفسير هذه الآية: «هي مجالس الفقه».

ولن يُحصِّل أحدٌ العلم إلا بالصبر.

قال يحيىٰ بن أبي كثير –أيضًا–: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم».

فبالصبر يُخرج من معرة الجهل، وبه تُدرك لذة العلم.

وصبر العلم نوعان:

أحدهما: صبرٌ في تحمله وأخذه؛ فالحفظ يحتاج إلىٰ صبر، والفهم يحتاج إلىٰ صبر، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبر، ورعاية حق الشيخ تحتاج إلىٰ صبر.

والنوع الثاني: صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلىٰ أهله؛ فالجلوس للمتعلمين يحتاج إلىٰ صبرٍ، وإفهامهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، واحتمال زلاتهم يحتاج إلىٰ صبر.

وفوق هذين النوعين من صبر العلم الصبر علىٰ الصبر فيهما والثبات عليهما.

لكلٍّ إلىٰ شأوِ العلا وثباتُ ... ولكن عزيزٌ في الرجال ثباتُ

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد التاسع من معاقد تعظيم العلم، وهو: (الصبر في العلم تحمُّلاً وأداءً)

أي: حبس النفس في التماس العلم بـ(التحمُّل) أي: بأخذه أولاً، وبأدائه ثانيـًا، لأن المقامات العالية لا تُدركُ إلا بالصبر وشواهد ذلك في التنزيل وسائر أنواع الدليل كثيرة ووافرة، ومنها الآيتان المذكورتان هٰهُنا.

ثم قال: (ولن يُحصِّل أحدٌ العلم إلا بالصبر).

ثم ذكر الصبر المطلوب في العلم فقال: (وصبر العلم نوعان: أحدهما: صبرٌ في تحمله وأخذه) يعني: في جمعه وتحصيله، وبيَّن وجوه ذلك ضارباً المثل فقال: (فالحفظ يحتاج إلىٰ صبر، والفهم يحتاج إلىٰ صبر، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبر، ورعاية حق الشيخ تحتاج إلىٰ صبر) فكلُّ واحدٍ من هذه المسالك؛ وهي: المقارنة حالَ العبد عند أخذه العلم تحتاج إلىٰ صبر، فأنت محتاجٌ للصبر كي تحفظ، ومحتاجٌ للصبر كي تفهم، ومحتاجٌ للصبر كي تجلس، ومحتاجٌ للصبر كي ترعىٰ حقَّ شيخك.

ثم ذكر نوعاً آخرَ فقال: (النوع الثاني: صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلىٰ أهله؛ فالجلوس للمتعلمين يحتاج إلىٰ صبر) أي: إمضاء الوقت في التعليم يحتاج إلىٰ صبر، (وإفهامهم يحتاج إلىٰ صبر، واحتمال زلاتهم يحتاج إلىٰ صبر) فليس التعليم لذَّةً تؤنس يقدر معها صاحبها علىٰ الجلوس علىٰ العلم، فإن هذا يكون في مبتدأِ الأمر، فإنَّ من حصَّل العلم يُحبُّ الجلوس للتعليم لذةً، ويسعىٰ في إفهامِ الناسِ لذةً، ثم إذا مضت سنونٌ من بذله العلم جاء وقت المجاهدة، فهو يجدُ مشقةً في الجلوس للمتعلِّمين، ويجد مشقةً في إفهام المتعلِّمين، ويجد مشقةً في زلأَّت المتعلِّمين، ويجد مشقةً في سوء أدب المتعلِّمين، فلا بدَّ أن يصبر علىٰ ذلك، لأن التعليم مقامٌ ينوب فيه العبد عن النبي ﷺ فالذي يستحضر شهود هذا المقام وأنه نائبٌ عن النبي ﷺ في تبليغ العلم = يُقوِّي ذلك نفسَه علىٰ الصبر، ولهذا تجد ممن عقل هذا الأصل لا ينفكُّ عن هذا التعليم مهما بلغت حاله، فلو سافر علَّم، ولو مرض علَّم، ولو كان عزاءٌ لبعض أقاربه علَّم، وهذه الأمور لا يصل إليها بيوم وليلة ولكنَّه وطَّن نفسه علىٰ الصبر في هدايةِ الناس فلمَّا جاءت هذه الأحوال كان فيها صابراً.

ثم قال: (وفوق هذين النوعين من صبر العلم الصبر علىٰ الصبر فيهما) أي: أن تصبر علىٰ تصبير نفسك في هذا وهذا، (والثبات عليهما.

لكل إلىٰ شأوِ العلا وثباتُ ... ولكن عزيزٌ في الرجال ثباتُ

(وثبات) يعني: قفزات.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد العاشر:

ملازمة آداب العلم.

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ - في كتابه «مدارج السالكين»:

«أدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلِبَ خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلِبَ حرمانهما بمثل قِلَّة الأدب».

والمرء لا يسمو بغير الأدب وإن يكن ذا حسب ونسب

وإنما يصلُح للعلم من تأدَّب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه.

قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم».

لأن المتأدب يُرىٰ أهلاً للعلم فيُبذلُ له، وقليلُ الأدب يُعزُّ العلمُ أن يُضيَّعَ عنده.

ومن هنا كان السلف - رحمهم الله - يعتنون بتعلم الأدب، كما يعتنون بتعلم العلم.

قال ابن سيرين - رَحِمَهُ اللهُ -: «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم».

بل إنَّ طائفةً منهم يقدِّمون تعلمه علىٰ تعلم العلم.

قال مالك بن أنسٍ لفتىٰ من قريش: «يا ابن أخي، تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم».

وكانوا يُظهرون حاجتهم إليه.

قال مَخْلَد بنُ الحسين لابن المبارك يومًا: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثيرٍ من العلم».

وكانوا يوصون به، ويرشدون إليه.

قال مالكٌ: «كانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهبْ إلىٰ ربيعة - تعني ابنَ أبي عبد الرحمن فقيه أهل المدينة في زمنه - فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه».

وإنما حُرِم كثيرٌ من طلبة العصر العلمَ بتضييع الأدب.

أشرف الليثُ بن سعدٍ - رَحِمَهُ اللهُ - علىٰ أصحاب الحديث، فرأىٰ منهم شيئًا كأنَّه كرهه، فقال: «ما هذا؟! أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم».

فماذا يقول الليث لو رأىٰ حال كثيرٍ من طلاب العلم في هذا العصر؟!

ذكر المصنف –وفقه الله– المعقد العاشر من معاقد تعظيم العلم، وهو: (ملازمة آداب العلم)، وذكر فاتحة القول فيه كلاماً عظيماً عن ابن القيم –رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ– يَكْشِفُ عن رُتبة الأدب وأثره في صلاح العبد وفساده، إذ قال: (أدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره) يعني: هلاكه ودماره، (فما استُجلِبَ خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلِبَ حرمانهما بمثل قِلَّة الأدب) وقد جمع فأوعىٰ، وأوجز فأبان.

ثم قال: (وإنما يصلُح للعلم من تأدَّب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه) فمن لم يكن متأدِّبًا لم يكن للعلم متأهلاً.

(قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم») ووجهه المُبينُ عن عِلَّته في قوله: (لأن المتأدب يُرىٰ أهلاً للعلم فيُبذل له، وقليل الأدب يُعزُّ العلمُ أن يُضيَّعَ عنده) لأن العلوم عند أهلها العارفين بها أعزُّ علىٰ نفوسهم من بناتهمُ الأبكار، فكما يتقون لبناتهم أزواجاً يضمونهم إليهم فكذلك يتقون للعلم من هم أهلاً لحمله من بعدهم، فإذا رأوا أحداً يلتمس العلم مع الأدب حرصوا علىٰ إفادته، وإذا رأوا أحداً يلتمس العلم مع قلة الأدب عاملوه بالحرمان من العلم.

قال: (ومن هنا كان السلف – رحمهم الله – يعتنون بتعلم الأدب، كما يعتنون بتعلم العلم).

ثم قال: (بل إنَّ طائفةً منهم يقدمون تعلمه علىٰ تعلم العلم.

قال مالك بن أنسٍ لفتىٰ من قريش: «يا ابن أخي، تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم».

وكانوا يُظهرون حاجتهم إليه.

وقال مَخْلَد بنُ الحسين لابن المبارك يومًا: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثيرٍ من العلم») هذا في زمانهم، فكيف في زماننا؟

(وكانوا يوصون به، ويرشدون إليه.

قال مالكٌ: «كانت أمي تعممني) أي: تُلبسني العمامة مع صِغري (وتقول لي: اذهبْ إلىٰ ربيعة – تعني ابنَ أبي عبد الرحمن فقيه أهل المدينة في زمنه – فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه») أي: كن بصيراً بالأحوال التي يتأدب فيها، في مشيه وأكله وشربه وجوابه وبيانه فاحرص علىٰ هذه الآداب أن تمتثلها، فطالبُ العلم إذا حضر في حلقة شيخه ينبغي أن يحرص فوق حرصه علىٰ مسائل العلم علىٰ أدب الشيخ في كلامه وبيانه ووعده ووعيده وزجره وثنائه، فإنك إذا فهمت هذا فهمت عنه كيفية إيصال العلم، فأذكر مثلاً: أنَّ

أشياخنا في الطبقة الماضية –رحمهم الله تعالىٰ- كانوا في أدبهم في الثناء علىٰ طلابهم النابهين أنهم كانوا لا يُميزونه عن أصحابه فلا يقولون: الشيخ فلان والشيخ فلان والشيخ فلان، تجد أن هٰولاء الطَّلبة عنده سواسيه، وأنه يُقدِّم من يحرص علىٰ العلم، لا يُقدِّم أحداً لأجل نسبه، وإلا لأجل أنه جارٌ من الجيران، ولا لأنه من بلده، ربما خصَّه لمعنىً من هذه المعاني في شيءٍ آخر، أمَّا في العلم فإنه لا يخصُّه فيه بمن غيره أولىٰ منه وأحق بأن يُقدَّم في العلم، فهو يقدم الأحق ولا يقدم من له سببٌ من الأسباب التي تستوجب التقديم عند الناس، لأنه يَعْلَم أن هذا العلم عبادة، وأنه يُراعي حق الله ﷻ فيه، فالذي يرىٰ أدب هٰولاء في العلم يتأدب بطريقتهم، فهو يعرف أنه إذا علَّم يُراعي هذا في المتعلِّمين، وأنه إذا أجاب عن سؤالٍ عرف كيف يجيب، وأنه إذا كان السؤال لا يستحقُ الإجابة لم يلزمه أن يُجيب، ولذلك تجد أن من تأدب بآداب الأشياخ الماضين ربما سُئل سؤالاً فقال له: اسئل عمَّا ينفعك، فتجد بعض الإخوان يقول: كيف يا أخي يقول: اسئل عمَّا ينفعك؟ هذا ينفعني! هذا ينفعك في ظنك أنت، لكنَّ هذا معلم للخير وهو أعرف بما ينفعك، فهو يقول: اسئل عمَّا ينفعك، هذا لا ينفعك، وقد تكون المسألة عندك أنت كبيرة وتعقلها وتدركها لكن هو يريدُ أن ينقلك إلىٰ أصلٍ آخر وهو أن هذه المسائل له من يتولَّاها؛ وإن سُئلت أنت عنها، فهب أنك سُئلت عن أمرٍ عظيم ممن يثقُ في علمك، ثم أردت أن تستوثق من عالمٍ من العلماء الكبار فربما قال لك: خلهم هم يسألون، ليش يقول لك: خلهم هم يسألون؟ لا للغضِّ من حالك أنت، ولكن ليتأدب هٰولاء أنَّ مثل هذه المسائل العظام تذهب إلىٰ الشيوخ العظام، ما تذهب إلىٰ من لا زال شاباً طريراً صغيراً في السن يسألونه عن ذلك، فالذي يعرف طريقة تأديب العلماء لأصحابهم في أحوالهم في كلامهم في سؤالهم في جوابهم في قراءتهم ينتفع الناس به، والذي لا يعرف يُضل الناس، تجده يتعامل مع الناس بأشياء ينقلها بعده الناس يظنون أنها ديناً فيقعون في ما يثلُب الدين، تجد بعض الناس مثلاً في كلِّ ما يُسأل عنه يُجيب، ولا يبالي هذا الذي يُجيبه يعرف مقدار عقله مقدار علمه، مقدار عنايته بما يسأل عنه، لا؛ يُجيبه، أمَّا المشايخ القُدامىٰ لا؛ ما يجيب كل واحد عمَّا يسأل عنه ينظر حاله، تجد أنت طالب تقرأ عنده ومع ذلك إذا جيت تقرأ عنده وقلت: يا شيخ –أحسن الله إليك- كذا وكذا؟ قال: هٰذي بعدين بعدين إن شاء الله، الحين ما تسمعها؛ ما تسمع بعدين إن شاء الله، لا؛ مباشرةً تجد أي واحد يسأل يُجاب، أي واحد يأتي بكتاب نعم يالله اقرأ تبي تقرأ الكتاب اقرأ! ما كان هذا عند المشايخ، يؤدبون طلبتهم، ينقلون طلبتهم، أنا أذكر لكم مما كان عليه –ولا أُريد أُطيل- لكن أذكر لمسيس الحاجة لهذه الأشياء، لم

يكن عندنا في قُطرنا أن يأتيَ الطالب أول مرة ويقرأ علىٰ الشيخ؛ أبداً، كان الطالب يأتي إلىٰ الشيخ ويجلس في حلقته ويسلم عليه ثم يقول: يا شيخ أنا أريد أن أقرأ عنك، يقول: من الأخ؟ فيقول: فلان بن فلان الفلاني، فيقول: حيَّاك الله، احضر عندنا ويصير خير إن شاء الله احضر عندنا، فيجعله يحضر يوم ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة وستة حتىٰ ربما بلغت عشرة أيام وهو يتردد له لا يقرأ شيئـًا، لماذا؟ ليش يفعل هذا به؟ وش رأيكم أنتم ليش يسويها؟

حتىٰ يعرف أنه جادٌّ أو غير جادّ، هل هو جاي يطلب العلم وإلا بس نزوه فقط؟ فإنه إذا كان نزوه يستحق التأديب، شيخنا الشيخ عبدالله ابن عقيل –رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- جاءه رجلٌ في مجلسه ليقرأ عليه كتابـًا، فقال: –أحسن الله إليك- أنا ودي أقرأ عليك؟ قال: وش تبي تقرأ؟ قال: يا شيخ معي أخصر المختصرات، وكان –رَحِمَهُ اللهُ- ليّن الجانب، فقال: يالله اقرأ، قال ذاك: بسم الله الرحمن الرحيم، قال المصنف –رَحِمَهُ اللهُ-: كتاب الطهارة، قال: ما فيه شي يا ولدي قبله؟ قال: يا شيخ لا أول شيء كتاب الطهارة باب المياه، قال: لا، ما فيه شيء عندك؟ قال: يا شيخ تقصد المقدمة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: ايه هذه المقدمة، قال: يا شيخ هذه واضحة! قال: أجل إن شاء الله تعالىٰ تجينا وقت ثاني تقرأ إن شاء الله تعالىٰ، ومنعه من القراءة فما قرأ عليه أبداً، لماذا؟ لأنه لا يصلح هٰولاء إلا بتأديبهم حتىٰ يعرفون العلم، فتجده يحضر مدة بعد ذلك إذا ثبت له حرصه قال: سم، قال: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب التوحيد، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، قال: حسبُك، ابتدأ المصنف –رَحِمَهُ اللهُ- بقول: كتاب التوحيد، ثم شرح له التَّرجمة، وشرح له الآية، قال: والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، يجعله مدة طويلة وهو لا يُقْرِئه إلا شيئـًا، ليعلم ثباته علىٰ العلم، ثم بعد ذلك يبدأ يزيده فيزيده فيزيده حتىٰ ربما إذا كان جاد بلغ أن يقرأ أربعين صفحة وهو كان يقرأ سطر واحد، لماذا؟ يؤدبون بهذا، وهم يريدون ممن يُؤدَب بهذا أن ينقل مِن بعده هذا التأديب كي يُحفظ العلم، يصير العلم شريف عزيز، وليس حمىً مستباحـًا يدخلُ فيه كلُّ أحد، فإنه إذا تأدَّب الناس بآداب العلم أدركوه، وأمَّا إذا لم يتأدَّب الناس بآداب العلم فإنَّه لا يدركوه، ولهذا من أعظم أسباب حرمان العلم عندنا عدم التأدب بآداب العلم، ومن أعظم الأسباب التي ستنالون بها العلم بإذن الله ﷻ إذا حرص الإنسان علىٰ الأدب.

وهذا آخر هذا المجلس ونستكمل الكتاب بإذن الله تعالىٰ في المجلس القادم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمدُ لله الذي جعل للعلم أصولاً، وسهَّل بها إليه وصولاً، وأشهدُ ألَّا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما بُيِّنت أُصول العلوم، وسلَّم عليه وعليهم ما أُبرز المنطوقُ منها والمفهوم.

أمَّا بعد: فهذا المجلس الثاني في شرح الكتاب الأول من برنامج **"أصول العلم"** في سنته الثالثة خمسٍ وثلاثين بعد الأربعمائة والألف وستٍ وثلاثين بعد الأربعمائة والألف وهو كتاب (**خلاصة تعظيم العلم**) لمُصنِّفه صالح بن عبد الله بن حمدٍ العُصيمي، وقد انتهىٰ بنا البيان إلىٰ قوله: (المعقد الحادي عشر).

قال المصنف وفقه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قلتُم غفرَ اللهُ لكم في كتابِكُم "خلاصةُ تعظيمِ العلم":

المعقد الحادي عشر:

صيانة العلم عما يَشين، مما يُخالف المروءة ويخرِمها.

من لم يَصُنِ العلمَ لم يَصُنْهُ العلمُ – كما قال الشافعي – ومن أخلَّ بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد استخفَّ بالعلم، فلم يُعظِّمْه ووقع في البَطالة، فتُقْضي به الحال إلىٰ زوال اسم العلم عنه.

قال وهب بن منبه – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: «لا يكون البَّطال من الحكماء».

وجِماع المروءة – كما قاله ابن تيمية الجدُّ في «المحرَّر»، وتبعه حفيده في بعض فتاويه: «استعمال ما يُجمله ويزينه، وتجنُّبُ ما يُدنِّسه ويَشينه».

قيل لأبي محمد سفيان بن عيينة: قدِ استنبطتَ من القرآن كلَّ شيء، فأين المروءة فيه؟ فقال: «في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩]؛ ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق».

ومن ألْزَمِ أدب النفس للطالب: تحليه بالمروءة، وما يحمِل عليها، وتنكُّبُه خوارمها التي تخلُّ بها؛ كحلق لحيته، أو كثرةِ الالتفات في الطريق، أو مدِّ الرِّجلين في مَجْمَعِ الناس من غير حاجةٍ ولا ضرورةٍ داعيةٍ، أو صحبةِ الأراذل والفسَّاق والمجّان والبطالين، أو مصارعة الأحداث والصغار.

ذكر المُصنِّف وفقه الله: المعقد الحادي عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (صيانة العلم عما يشين) أي حِفْظُه عما يُسْتَقْبَح وبيَّن المُسْتَقْبَح بقوله: (ممَّا يُخالف المروءة ويخرمها) أي ما يُباين المروءة ويفسدها، فمن تعظيم العلم أن يجتهد ملتمسه في حفظ علمه عمَّا يُستقبح مما هو مباين المروءة؛ أي مخالفٌ لها، خارمٌ لحقيقتها؛ أي مُفسدٌ لها.

ثم استفتح بيانه بقوله: (من لم يصن العلم لم يصنه العلم) وهذه الكلمةُ من الجواهر المنقولة عن الإمام الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ومعناها أنَّ من لم يحفظ العلم لم يحفظه العلم، ثم بيَّن وجه عدم حفظ العلم بقوله: (ومن أخل بالمروءة بالوقوع فيما يشين فقد استخف بالعلم) أي من مظاهر شَيْن العلم

وترك صيانته الإخلال بالمروءة وذلك بمواقعةِ العبد ما تَقْبُحُ به مواقعته إمَّا شرعًا وإمَّا عُرْفًا، فإن المستقبحاتِ نوعان:

أحدهما: مستقبحاتٌ شرعيَّة.

والآخر: مستقبحاتٌ عُرْفيَّة.

فالأول وهو المستقبحات الشرعية ما نُهي عنه إمَّا نهيَ كراهةٍ أو نهيَ تحريم؛ وهي في الثاني أشدّ، فإنَّ المحرماتِ أشدُّ المستقبحات شرعًا.

وأمَّا الثاني وهو المستقبحات العرفية فهو ما حكم بقباحته عرفًا مما يسترذله الناس ويستخفُّون بفاعله، فإذا وقع العبد في تلك المستقبحات فإنَّه قد استخفَّ بجناب العلم؛ أي عامله علىٰ وجه الخِفَّة بحقِّه وعدمِ القيامِ بجنابه، فيكون جزاؤه ألا يُصيبَه حظٌ من تعظيم العلم، ويقع بذلك في البطالة؛ أي في الفساد والاشتغال بما لا ينفع فتُفضي به الحال إلىٰ زوال اسم العلم عنه.

(قال وهبُ بنُ منبه رَحِمَهُ اللَّهُ) من فقهاء التابعين من أهل اليمن: (لا يكونُ البطَّالُ) أي المشتغلُ بما لا ينفعُ من الفساد ونحوه، (من الحكماء) أي من المتَّصفِين بالحكمة؛ لأنَّ بلوغَ الحكمة لا يكون إلا بالاشتغالِ بالنافع، فإنَّ من اشتغل بما ينفعُه ترقَّىٰ في مناقر الحكمة ومراتبها حتىٰ يصل إلىٰ أعلاها.

ثم قال: (وجماع المروءة) أي الأمرُ الجامعُ حقيقةَ المروءة هو ما ذكره ابنُ تيميَّة الجد ثم حفيده أبو العباس أحمد إذ قال: (استعمال ما يجمله ويزينه وتجنب ما يدنسه ويشينه) فحقيقةُ المروءةِ استعمالُ شيئين:

أحدُهما: استعمالُ المُجمِّلِ المُزيِّن، وهو المرغوبُ المطلوب.

والآخر: تجنُّب استعمالِ المُدنِّس المُشيِّن، وهو المرهوبُ المغلوب.

فالأول ينبغي للعبد أن يطلبه راغبًا فيه، والثاني ينبغي للعبد أن يرهبه فاراً منه، فمتىٰ كانت حالُ العبد دائرةً بين هذا وذاك كان محققًا للمروءة، فإذا صار بين ناظريك أمرٌ ما رُمتَ أن تعرف منزلته من المروءة فانظر موقعه من التجميل والتزيين أو من التدنيس والتشيين، فإن كان مُجمِّلاً مُزيِّنًا استعملتَه وإن كان مُدنِّسًا مُشيِّنًا اجتنبته، فإذا أعملت هذا في أمرك كلِّه كنتَ ملتزمًا المروءة.

ثم ذكر حكايةً لطيفةً في استنباط العلم إذ سُئل أبو محمد سفيانُ بن عُيينة الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ من فقهاء أهل الحجاز ورؤوسهم فقيل له: (قد استنبطت) أي استخرجت فحقيقةُ الاستنباط الاستخراج وخصُّوه عُرْفًا

بالاستخراج الدقيق، فإنَّ الاستخراج الدقيقَ من العلم يُسمَّىٰ استنباطـًا، (قيل له: قد استنبطت من القرآن كل شيء فأين المروءة فيه؟) أي أين دليلُ المروءة في القرآن؟ فقـال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في قولـه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩]، ففيه المروءة وحسن الأدب ومكارم الأخلاق) أي فيها الأمرُ باستعمال ما يُجمِّل ويُزيِّن واجتنابُ ما يُدنِّسُ ويُشيِّن.

ثم قال بَعْدُ: (ومن ألزم أدب النفس للطالب تحليه بالمروءة) أي أعلىٰ آداب النفس التي ينبغي أن يتحلَّىٰ بها مُلتمس العلم وطالبُه أن يتحلَّىٰ بالمروءة وما يحمل عليها، (وتَنكُّبُه خوارمَها) أي مفسداتها، فخارمُ المروءة هو مفسدها، وخوارم المروءة نوعان:

أحدهما: خارمٌ يرجع عليها بالنقض.

والآخر: خارمٌ يرجع عليها بالنقص.

فالأول المحرمات، والثاني: ما عُدَّ مُفْسِداً لها ولم يكن محرمـًا، وكلا النوعين مما يُؤْمَرُ طالبُ العلم أن يجتنبه، فـ"التَنَكُّب" التباعُدُ والاجتناب.

وذكر المصنِّف أموراً من هذه المفسدات علىٰ وجه ضرب المثال فقال: (كحلق لحيته) أي استئصال شعرها، (أو كثرة الالتفات في الطريق) لأنَّ من خِفَّة عقل المرء أن يكون كثيرَ التلفت في الطريق، فالماشي الآخذُ في طريق إنَّما يحمله علىٰ السير فيه طلبُ ما ينفعه، والطالبُ ما ينفعه يقبلُ علىٰ شأنه ولا يشتغلُ بغيره، وكثرةُ الالتفات في الطريق تقطعُ العبدَ عمَّا ينفعه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنْ كثُر التفاتُه انقطع سيرُه؛ يعني إذا أكثر العبدُ الالتفات إلىٰ ما لا ينفعُه في سيره إلىٰ الله ﷻ فإنَّه ينقطعُ سيرُه لأنه يَضْعُفُ مشيه ثمَّ ينقطعُ في الطريق ولا يواصلُ سيرَه إلىٰ ربِّه ﷻ.

قال: (أو مد الرجلين في مجمع الناس من غير حاجة ولا ضرورة داعية) أي مدُّ الرجلين حالَ اجتماعِ النَّاس في مجلسٍ من مجالسهم في أمرٍ نافعٍ لهم في دينهم أو دُنياهم من غير حاجةٍ؛ كطول المجلس وكونه شيخـًا كبيراً، ولا ضرورة داعية؛ ككونه مريضـًا يفتقرُ إلىٰ مدِّ رجليه لدفعِ العِلَّةِ عنه.

ثم قال: (أو صحبة الأراذل) أي أسقاط الناس، (والفُسَّاق والمُجَّان) أي أهل المجون والفساد، (والبطَّالين) ممن يشتغلُ بما لا ينفعه، (أو مصارعة الأحداث والصغار) أي ملاعبتهم بالمصارعة، فكلُّ ذلك مما يرجعُ علىٰ المروءة بإفسادها وينبغي أن يحذرَه المنتسبُ إلىٰ العلم المشتغلُ به.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثاني عشر:

انتخاب الصحبة الصالحة له.

اتخاذ الزميل ضرورة لازمةٌ في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ معاشرة غيره من الطلاب؛ لِتُعينه هذه المعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد في طلبه.

والزمالة في العلم إن سَلِمت من الغوائل نافعةٌ في الوصول إلىٰ المقصود.

ولا يَحسُنُ بقاصد العلا إلا انتخاب صحبةٍ صالحةٍ تُعينه؛ فإنَّ للخليل في خليله أثرًا.

روىٰ أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «الرجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل».

قال الراغب الأصفهاني: «ليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنظر إليه».

وإنما يُختار للصحبة من يُعاشر للفضيلة لا للمنفعة ولا للذة؛ فإنَّ عقْد المعاشرة يُبرَم علىٰ هذه المطالب الثلاثة: الفضيلة، والمنفعة، واللذة.

ذكره شيخ شيوخنا محمد الخضر بنُ حسين في «رسائل الإصلاح».

فانتخب صديق الفضيلة زميلاً؛ فإنك تُعرَفُ به.

وقال ابنُ مانعٍ رَحِمَهُ اللهُ في «إرشاد الطلاب» وهو يوصي طالب العلم -:

«ويَحْذَر كلَّ الحذر من مخالطة السُّفهاء، وأهلِ المجون والوقاحة، وسيئي السمعة، والأغبياء، والبُلداء؛ فإن مخالطتهم سبَبُ الحرمان وشقاوة الإنسان».

ذكر المصنف وفقه الله المعقد الثاني عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (انتخابُ الصحبة الصالحة له) أي اختيارُ الصحبة التي تصلُح معاشرتُها في العلم، لأنَّ الناس مفتقرون إلىٰ اتِّخاذ الرِّفاق والزُّملاء، فإن الله ﷻ كتب عليهم حصولَ انتفاعِ بعضِهم ببعض، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، أي لينتفعَ بعضُكم ببعضٍ، وهذه الآية أصلُ الحياةِ المدنية في القرآن، ذكره ابنُ خلدون وابنُ تيمية في آخرين، فإنَّ النَاس لا تَتِمُّ منافعُهم في أمورهم الدينيَّة والدُّنيويَّة إلا بانتفاع بعضِهم ببعضٍ، ومن جملة ما يفتقر فيه العبد إلىٰ غيره طلب العلم.

قال المصنِّف: (اتخاذ الزميل ضرورة لازمة في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ معاشرة غيره من الطلاب لتعينه هذه المعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد في طلبه) فالافتقار إلىٰ هذه المعاشرة حامله طلب الإعانة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد فيه، فإن المرء يضعف سيره في نفسه إذا انفرد غالبًا، فيحتاج إلىٰ من يشدُّ عضدَه ويقوي سيره ممن يعاشرهم من الصحبة المشاركين له في طلب العلم.

ثم قال: (والزمالة في العلم) أي اتخاذ الزميل، (إن سلمت من الغوائل) أي من العوادي المفسدةِ لها (نافعةٌ في الوصول إلىٰ المقصود) فإذا اتخذ ملتمس العلم زميلاً له أعانه ذلك الزميل علىٰ تحصيله، إن تجرَّدت تلك الزمالة ممَّا يُفسدُها كأن تكون تلك الزمالة حاملها الأكبر ليس العلم وإنَّما أمرٌ آخر، وجُعِلَ العلم جاذبًا لها في المبتدأ وليس مقصوداً منها في المُنتهىٰ، فلا بد أن تعود هذه الزمالة علىٰ أصحابها بالسوء.

ثم قال: (ولا يحسن بقاصد العلا إلا انتخاب صحبة صالحة تعينه فإن للخليل في خليله أثرا) فالناس في صحبتهم التي يعقدون لا يسلمون من نوعين لا ثالث لهما:

النوعُ الأول: الصحبةُ الصالحة.

والنوع الآخر: الصحبة السيئة.

فمن رام أن يصل إلىٰ المعالي حَسُنَ به أن ينتخب الصحبةَ الصَّالحةَ لأنَّها تعينه للوصول إلىٰ تلك المعالي.

ثم قال معلِّلاً: (فإن للخليل في خليله أثراً) أي لا بدَّ من حصول أثرٍ بين الأخلاء؛ أي المتعاشرين ببلوغِ محبَّةِ بعضِهم بعضًا خلال أنفسهم، فمحبةُ أحدِهما للآخر قد تخلَّلت روحَه فصار متعلِّقًا به، فإذا عُقدت هذه الأصرةُ بين اثنين فأكثر فإنَّه لا بد من حصول أثرٍ فيها، قال الأصمعي: ما رأيتُ بيتًا أشبه بالسنَّة من قول الزُّبير بن عَدِي:

عـن المـرءِ لا تسـألْ وأبصـرْ قرينَـه ... إنَّ المقـارن بالمقـارن يقتـدي

رواه ابن بطَّة في "**الإبانة الكبرىٰ**". أي هذا البيتُ شبيهًا بما جاءت به السُّنَّة من بيان أصلٍ كُلِّي فيما يحصل بين الناس من الأثر، وهذا هو الذي جاء في حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» رواه أبو داود والترمذي، أي يكون الرجل في قوة دينه علىٰ مقدار من يصحبه، فإذا كان من يصحبه قويَّ الدين قَويَ دينُه، وإذا كان من يصحبه ضعيفَ الدين ضَعُفَ دينُه،

ولذلك أرشد النبي ﷺ إلىٰ اختيارِ الصحبة بقوله: «**فلينظر أحدكم من يخالل**» أي ليُمْعِنِ النَّظر فيمن يتخيَّرُه للصُّحبة لأنَّ تلك الصُّحبة ترجع بأثرها علىٰ العبد.

ثم ذكر كلام الراغب الأصفهاني في قوله: (ليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط) أي لا يقتصر تأثُّرُ المرء بمن يجالسُه بالمقال والفعال فقط (بل بالنَّظر إليه) أي مجرَّد النظر إليه يؤثِّر فيه، وهذا ظاهر فيما يُذكر من حال جماعة من السلف رحمهم الله أنَّهم كانوا إذا رُؤْوا ذُكر اللهُ ﷻ، فإنَّ مشاهدتَهم ورؤيتَهم تُذكِّرُ بالله ﷻ بما هُمْ عليه من الطاعة، فيُذْكر اللهُ ﷻ تعظيماً وإجلالاً، فالعبد يسري فيه أثر جليسه بمجرَّد النظر إليه.

ثم قال: (وإنَّما يُختار للصحبة من يعاشر للفضيلة لا للمنفعة ولا للذة) فعقدُ المُعاشرة يُربطُ علىٰ إحدىٰ ثلاث:

أولها: رابطةُ الفضيلة.

والثانية: رابطةُ المنفعة.

والثالثة: رابطة اللذة.

فالمرءُ يعقدُ آصرةَ الصِّلةِ بغيره لواحدةٍ من هذه الثَّلاث، فإمَّا أن يعاشرَه لفضيلة، وإمَّا أن يعاشرَه لمنفعة، وإمَّا أن يعاشرَه للذَّة، وهذه القسمة الثلاثية ذكرها شيخُ شيوخنا محمدُ الخضر بنُ حسين في **"رسائل الإصلاح"**.

ثم قال بَعْدُ: (فانتخب صديق الفضيلة زميلا فإنك تعرف به) أي اختر من هؤلاء الثلاثة من تكون آصرةُ الرابطة بينك وبينه هي آصرةُ الفضيلة، فالحاملُ لك علىٰ معاشرته أنَّك تلتمس أنت وإيَّاه فضيلة ترومان الوصول إليها، لأنَّ من يعاشرُ لأجل المنفعة أو لأجل اللذَّة فإنَّ تلك الآصرةَ تنقطعُ بمجرَّد نيلِ ما يريدُ أحدهما من الآخر، فمن عاشر آخر لأجل منفعةٍ فإنه إذا حاز تلك المنفعة واقتنصها زالت معها آصرةُ المعاشرة، وإذا كان يعاشره لأجل لذَّة يطلبُ الوصولَ إليها من مالٍ أو غيره فإنَّه إذا نال تلك اللذَّة التي يقصدها منه قطع تلك الرابطة بينك وبينه، وأمَّا من يعاشر للفضيلة فإنَّ العاقل من هؤلاء تبقىٰ معاشرته صاحبَه ما بقيت الفضيلةُ بينهما، وملتمس العلم إذا عاشر غيره لأجل العلم فإنَّ هذه الآصرة تبقىٰ ما بقيت هذه الفضيلة في نفس هذا وذاك.

ثم ذكر كلاما حسناً ماتعاً نافعاً عن العلامة محمد بن مانع رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ من علماء عُنيزة، إذ قال في كتاب إرشاد الطلاب مُوَصيًّا: (ويحذر) أي الطالب، (كل الحذر) أي أشد الحذر، (من مخالطة السفهاء وأهل المجون والوقاحة وسيء السمعة والأغبياء والبلداء) فكل هؤلاء المتصفين بهذه الصفات من صفات النقص تُمْنَعُ معاشرتُهم؛ ومُوجِبُ ذلك هو المذكور في قوله: (فإنَّ مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان) وهذا الحرمان والشقاوة يكون في الدنيا والآخرة، فإن العبد يجري عليه الحرمان من الخير وينال الشقوة في الدارين بسبب واحدٍ من هؤلاء الذين صاحبهم، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ: "إنِّي لأحرم الرجل الحديث الغريب لجليسه" أي أمتنعُ من تحديث الرجل الملتمس العلم "حديثاً غريباً" يعني حديثاً ذا فائدة تُطلب روايتُه، "لجليسه" أي لأجل من يجالسه ويعاشره، فيراه مجالساً أهلَ البطالة والمجون والفسق والبلادة والغباء وسيءِ السمعة فيحرمه لأجل ذلك، لأنَّ العلم يُعَزُّ أن يُجعل في أمثال هؤلاء، وإذا صاحب المرءُ هؤلاء سَرَت إليه عِلَلُهم، فإنَّ الذي يصاحبُ البليدَ يصيرُ بليداً، والذي يصاحبُ قبيحَ السمعة يصيرُ قبيحَ السمعة، والذي يترفَّعُ عن صُحْبَةِ هذا وذاك يجعلُ نفسَه في حصنٍ وثيقٍ من شرورهما، فهو أهلٌ لإيصال الخير إليه، وأما المتلطِّخ بصحبة هؤلاء فإن مآل أمره إلىٰ حصول النقص فيه، ويُعزُّ العلمُ أن يُجْعلَ عند أهل النقص، ذُكر في ترجمة سليمان الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ أنَّه عاتب في مجلسه يوماً رجلاً من أصحابه ثم انصرف عنه فسمع رجلاً آخر في مجلسه يقول لذلك الصاحب للأعمش: لو قال لي مثل ما قال لك لما جلستُ عنده؛ يعني لو قال لي الأعمش مثل الكلام الذي قال لك لما جلستُ عنده، فسمعه الأعمش فالتفت إليه وقال له: أَوَتريدُ أن يكون أحمقَ مثلك؟ يعني تريد أن يسمع كلامك هذا ويصير أحمق مثلك؟ فهذا الجليس الذي جالس الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ من أصحابه كان عاقلاً ولم يصحب أهلَ البطالة وقِلَّة العقل والسَّفاهة الذين يعاملون بمثل هذا، بل يرون أنَّ من أرشدهم ولو عنَّف العبارة فإنَّه يريدُ النَّفع لهم، قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ في كلام له: "المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ، وقد لا يَنْقلِعُ الوسخُ إلا بشيءٍ من التخشين" انتهىٰ كلامه، أي لا يزول الضرر عن أحدٍ يُرشد إلا بتخشين العبارة له، وقد بوَّب البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ تعالىٰ: بابُ الغضبِ في الموعظةِ والتعليم.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثالث عشر:

بذل الجهد في تحفظِ العلم، والمذاكرة به، والسؤال عنه.

إذ تلقيه عن الشيوخ لا ينفع بلا حفظٍ له، ومذاكرةٍ به، وسؤال عنه؛ فهولاء تُحقق في قلب طالب العلم تعظيمه؛ بكمال الالتفات إليه والاشتغال به، فالحفظ خَلوةٌ بالنفس، والمذاكرة جلوسٌ إلىٰ القرين، والسؤال إقبالٌ علىٰ العالم.

ولم يزلِ العلماء الأعلام يحضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به.

سمعت شيخنا ابن عثيمين – رَحِمَهُ اللَّهُ – يقول: "حفظنا قليلًا وقرأنا كثيرًا، فانتفعنا بما حفظنا أكثر من انتفاعنا بما قرأنا".

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النفس، ويقوىٰ تعلقه بها، والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران.

وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الذي هو أيسر العلوم.

روىٰ البخاري ومسلم عن ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وأن أطلقها ذهبت**».

قال ابن عبد البر – رَحِمَهُ اللَّهُ – في كتابه «التمهيد» عند هذا الحديث:

«وإذا كان القرآن الميسَّر للذكر كالإبل المعلقة، من تَعَاهَدها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!»

وبالسؤال عن العلم تُفتتح خزائنه، فحُسْن المسألة نصف العلم، والسؤالاتُ المصنَّفة – كمسائلِ أحمدَ المروية عنه – برهانٌ جليٌّ علىٰ عظيم منفعة السؤال.

وهذه المعاني الثلاثةُ للعلم: بمنزلةِ الغرس للشجر وسقيه وتنميته بما يحفظُ قوَّته ويدفعُ آفته، فالحفظُ غَرس العلم، والمذاكرةُ سقيه، والسؤالُ عنه تنميته.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد الثالث عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (بذل الجهد) بفتح الجيم وضمها، والمراد به الوَسْع والطاقة في أمور ثلاثة، هي تحفُّظ العلم، والمذاكرةُ به، والسؤالُ عنه، وهذه الأمور الثلاثة من أعظم موارد العلم، فإنَّ للعلم مواردَ يصل بها إلىٰ النفس من آكدها هذه الأمور الثلاثة كما قال: (إذ تلقيه عن الشيوخ لا ينفع بلا حفظ له ومذاكرة به وسؤال عنه، فهؤلاء تحقق في قلب طالب العلم تعظيمه بكمال الالتفات إليه والاشتغال به) فالمقبلُ علىٰ هؤلاء الثلاث مُعظِّمٌ للعلم لأنَّ الأمر كما

قال: (فالحفظُ خلوةٌ بالنَّفس) أي انفرادٌ بها، (والمذاكرة جلوس إلىٰ القرين) وهو الزميل المشارك، (والسؤال إقبال علىٰ العالم).

ثم ذكر طرفًا من منافع كل واحد من هذه الثلاثة فقال ذاكراً ما يتعلَّق بمنفعة الأول وهو الحفظ: (ولم يزل العلماء الأعلام يحضون علىٰ الحفظ) أي يحثُّون عليه بشدة، (ويأمرون به، سمعتُ شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: حفظنا قليلاً وقرأنا كثيراً فانتفعنا بما حفظنا أكثر من انتفاعنا بما قرأنا) لأنَّ المحفوظَ يكون مستقراً في القلب يستدعيه صاحبُ العلم متىٰ احتاج إليه، فإذا احتاج إليه في تعليمٍ أو إفتاءٍ أو قضاءٍ أو غيرِ ذلك استدعاه من قلبه فكان حاضراً، ووقعت موافقة الصواب في التعليم أو في الإفتاء أو في القضاء لحضور العلم في القلب.

ثم قال ذاكراً طرفًا من منفعة الثاني وهو المذاكرة قال: (وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النفس) أي تستقرُّ وتبقىٰ، (ويقوىٰ تعلُّقه بها) أي يستوثق تعلُّق النفس بالعلم.

ثم بيَّن المراد بالمذاكرة بقوله: (والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران) أي الجلوس مع قرينٍ لك تدرس أنت وإيَّاه شيئًا تعلمتماه من قبل، كالحاضرين إلىٰ هذا الدرس قبل صلاة العشاء، فإنَّه يَحْسُنُ بهم أن يتَّفقوا فيما بينهم علىٰ المُدارسة لما مضىٰ في الدرسِ السابق، فإنَّ هذا من جنس مدارسةِ الأقران التي تقوِّي العلم في النفس وتثبته فيها.

ثم قال بَعْدُ: (وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الذي هو أيسر العلوم) أي مدارسته ودوام مراجعته، وذكر حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين وفيه أن النبي ﷺ قال: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة**» أي التي شُدَّت بعقال، والعقال هو الحبل الذي يوثق به الجمل، «**إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت**» أي إن تعهدها والتمس وجود العقال فيها حُفظت وإن أطلقها وترك شدها بالعُقُل فإنها تذهب ويلحقه مشقة في تتبعها وردِّها إلىٰ مواضعها.

ثم ذكر كلام ابن عبد البر في كتاب "**التمهيد**" وفيه قوله: (وإذا كان القرآن الميسر للذكر كالإبل المعقلة من تعاهدها أمسكها فكيف بسائر العلوم) أي فهي أحوج إلىٰ دوام مذاكرتها.

قال المزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأدم للعلم مذاكرةً   فحياةُ العلم مذاكرتُه

أي لا يبقىٰ العلم حياً في نفسك إلا بدوام المذاكرة.

ثم ذكر طرفًا من منفعة الثالث وهو السؤال فقال: (وبالسؤال عن العلم تفتتح خزائنه) أي مواضع حفظه، (فحسن المسألة نصف العلم، والسؤالات المصنفة كمسائل أحمد المروية عنه برهان جلي علىٰ عظيم منفعة السؤال) أي من طالع السؤالات التي جُمعت لأحمد من أصحابه كابنه عبد الله وابنه صالح وإسحاق بن هانئ في آخرين رأىٰ منفعة السؤالات وما فيها من العلم العظيم.

ثم قال بَعْدُ: (وهذه المعاني الثلاثة للعلم) يعني الحفظ والمذاكرة والسؤال، (بمنزلة الغرس للشجر وسقيه وتنميته بما يحفظ قوته ويدفع آفته، فالحفظ غرس العلم) أي إذا حفظ صاحب العلم علمه يكون قد غرسه في نفسه.

ثم قال: (والمذاكرة سقيه) أي بمنزلة الماء الذي يُدفع إلىٰ ذلك الغرس، (والسؤال عنه تنميته) أي استعمال ما فيه تقوية لذلك الشجر حتىٰ ينمو ويقوىٰ.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الرابع عشر:

إكرام أهل العلم وتوقيرهم.

إن فضل العلماء عظيم، ومنصبهم منصب جليل؛ لأنهم آباء الروح، فالشيخ أبٌ للروح كما أن الوالد أبٌ للجسد، فالاعتراف بفضل المعلمين حقٌّ واجبٌ.

قال شعبةُ بن الحجَّاج: «كُلُّ مَن سمعتُ منه حديثًا؛ فأنا له عبدٌ».

واستنبط هذا المعنىٰ من القرآن محمَّدُ بن عليٍّ الأُدْفُويُّ فقال – رَحِمَهُ اللَّهُ –: «إذا تعلَّم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد، فهو له عبدٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف:٦٠]، وهو يُوشَع بنُ نونٍ، ولم يكن مملوكًا له، وإنَّما كان مُتَلْمِذًا له، متبِّعًا له، فجعله الله فتاه لذلك».

وقد أمر الشَّرع برعاية حقِّ العلماء؛ إكرامًا لهم، وتوقيرًا، وإعزازًا.

فروىٰ أحمد في «المسند» عن عبادة بن الصامت ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه**».

ونقل ابن حزمٍ الإجماعَ علىٰ توقير العلماء وإكرامهم.

فمن الأدب اللازم للشيخ علىٰ المتعلِّم – ممَّا يدخل تحت هذا الأصل – التواضع له، والإقبال عليه، وعدمُ الالتفات عنه، ومراعاة أدب الحديث معه، وإذا حدَّث عنه عظّمه من غير غُلوٍّ، بل يُنزلُهُ منزلَتَه؛ لئلا يَشينه من حيث أراد أن يمدحه، وليشكر تعليمه ويدعُ له، ولا يُظهر الاستغناءَ عنه، ولا يُؤذِهِ بقولٍ أو فعلٍ، ولْيتلطَّف في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلَّةٌ.

ومما تُناسب الإشارة إليه هنا – باختصار وجيزٍ – معرفةُ الواجب إزاءَ زلَّة العالم، وهو ستَّة أمورٍ:

الأول: التثبت في صدور الزلة منه.

والثاني: التثبت في كونها خطأ، وهذه وظيفة العلماء الراسخين، فيُسألون عنها.

والثالث: ترك اتباعه فيها.

والرابع: التماس العذر له بتأويلٍ سائغ.

والخامس: بذل النصح له بلطفٍ وسرٍّ، لا بعنفٍ وتشهيرٍ.

والسادس: حفظ جَنابه، فلا تُهدَرُ كرامته في قلوب المسلمين.

وممَّا يُحذَّرُ منه ممَّا يتَّصل بتوقير العلماء؛ ما صورته التوقير ومآله الإهانة والتحقير، كالازدحام علىٰ العالم، والتضييقِ عليه، وإلجائه إلىٰ أعسر السُّبل.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد الرابع عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (إكرام أهل العلم وتوقيرهم) أي إجلالهم، فالتوقير الإجلال، وقال في مبتدأ بيانه: (إن فضل العلماء عظيم ومنصبهم منصب جليل) وعلَّله بقوله: (لأنهم آباء الروح) فالأبوة التي تكتنف الإنسان نوعان:

أحدهما: أبوة بدنيِّة جسمية.

والآخر: أبوة روحيِّة دينية.

فالأبوة الأولىٰ هي لواحدٍ وهي لأبيك الذي أنت نَسْلُهُ، وأما الأُبوة الروحيَّة الدينيِّة فهي لمن تستفيد منه علماً من أهله من العلماء والشيوخ، قال: (فالشيخ أب للروح كما أن الوالد أب للجسد، فالاعتراف بفضل المعلمين حق واجب) وذكر كلاماً في ذلك عن شعبة بن الحجاج فقال: **"كُلُّ من سمعت منه حديثًا"** يعني استفدتُ منه علماً ومن جملةِ ذلك رواية الحديث، وكان شعبةُ من أئمتها، **"فأنا له عبد"** أي بمنزلة العبد، فإنَّ السيد يُحسن إلىٰ مملوكه الذي هو رقيقٌ له بملك رقبته، فكذلك المعلم يحسن للمتعلِّمين بما يُوصل إليهم من أنواع الخير فيما ينفعهم في الأولىٰ والآخرة، فهم حينئذٍ في رقابهم رقٌ له لإنعامه عليهم كإنعام مالك الرقيق علىٰ مملوكه.

ثم ذكر استنباط هذا المعنىٰ من القرآن في كلام محمد بن علي الأُدْفُويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، وهو يوشع بن نون ولم يكن مملوكًا له) أي لم يكن رقيقا مملوكا له بملك الرقبة وإنَّما كان (متلمذاً له) أي مستفيداً منه بالتلمذة، يقال: تلمذ له ولا يقال: تلمذ ولا تتلمذ عليه.

ثم قال: (متبعاً له فجعله الله فتاه لذلك) أي نسبه إليه بالفُتوة فجعله فتىٰ لموسىٰ عليه الصلاة والسلام لأجل أنه يستفيد منه العلم.

ثم ذكر ما أمر به الشرع من رعاية حق العلماء وإكرامهم وتوقيرهم فذكر حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أُمَّتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه**» فالعالم له حقٌ ومن الإيمان أن تعرف للعالم حقه، وهذا الحق الذي للعالم ليس حقاً مستفاداً من أمر

يُرجع فيه إلىٰ الناس، ولكنَّه أمرٌ مستفاد من الله ﷻ، فإنَّ الله جعل للعلماء رتبةً ومقامًا كريمًا في الدين وأثبت لهم حقًا علىٰ المسلمين، فالقيامُ بهذا الحق قيامٌ بشيءٍ من الدين.

ثم ذكر الإجماع الذي نقله ابن حزم من توقير العلماء وإكرامهم وأنَّه من شعائر الدين.

ثم ذكر من الأدب اللازم للشيخِ علىٰ المتعلِّم مما يدخل تحت هذا الأصل؛ يعني من التوقير والإجلال (التواضع له والإقبال عليه) بأن يجمع نفسه ظاهراً وباطنًا علىٰ ما يُلقىٰ إليه من العلم، فإنَّ الجالس إلىٰ المتعلِّمين لا يجلس إلىٰ مجموعهم ولا إلىٰ واحدٍ منهم بل يجلس إليهم جميعًا، فإنَّ الجالس ها هنا والجالس ها هنا والجالس ها هنا والقريب والبعيد هم بمنزلة واحدة، فالجالس لتعليمهم جالسٌ لكلِّ واحدٍ منهم.

ثم قال: (وعدم الالتفات عنه) بألَّا يشتغل بشيءٍ لا صلة له بما يُلقىٰ إليه، فإنَّ الكلام الذي يُرسل يُرادُ وصوله إلىٰ كلِّ واحدٍ من السامعين، (ومراعاة أدب الحديث معه، وإذا حدَّث عنه عظَّمه من غير غلوٍّ، بل ينزله منزلته؛ لئلا يشينه من حيث أراد أن يمدحه، وليشكر تعليمه ويدعُ له، ولا يظهر الاستغناء عنه، ولا يؤذيه بقولٍ أو فعلٍ، ولْيتلطَّفْ في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلَّة).

ثم قال: (ومما تناسب الإشارة إليه هنا باختصار وجيز معرفة الواجب إزاء زلة العالم) وزلة العالم هي الغلط الذي يبدر من العالم، فإن الله ﷻ جعل من أدلة كماله نقص الكاملين، فإنَّ الكاملين من الخلق يحدث فيهم نقصٌ تحقيقًا لكمال الله ﷻ، فإنَّ الكمال الإلهي لا يبلغه أحدٌ أبداً، والكمالُ الإنساني من صفاته حدوث الزَّلَّة والخطأ، فإنَّ الزَّلَّة والخطيئة ملازمةٌ للآدميَّة والبشريَّة، فالعالم يخطئُ كما يخطئُ غيره ومن خطئه ما يتعلَّق بالعلم الذي يُسمِّيه أهلُ العلم زلَّةَ العالم، فإذا وقع العالم في زلَّةٍ مما كتبه الله ﷻ علىٰ الخلق فإنَّ من الواجب علينا معرفة ستة أمور:

(أولها: التثبت في صدور الزلة منه) أي تحقق صدورها عنه، فكم من شيءٍ يُنسبُ إلىٰ أحدٍ من العلماء يُعَدُّ زَّلةً وهو لم يقع منه البتَّة.

(والثاني: التثبت في كونها خطأ) أي التحقق بأن ما وقع فيه خطأٌ، (وهذه وظيفة العلماء الراسخين فيُسألون عنها) فإنَّ كثيراً من المشتغلين بالعلم ربما بادروا بالهجمةِ علىٰ قولٍ يسمعونه لبعضِ العلماء بالحُكم بأنه خطأٌ فاحش، فإذا راجعوا دهاقنةَ العلم وأهلَ المعرفة به قالوا بأنَّ هذا القول له مجال متَّسع وقد قال به فلان وفلان من قبل وله من الأدلة كذا وكذا،

وفي نظام الشعر:

وكـم مـن عائـبٍ قـولاً صـحيحـًا وآفتُـــه مـــن الفهـــمِ السَّـــقيمِ

فلا بد من تحقُّق كون ما صدر منه هو من الخطأ.

ثم قال: (والثالث: ترك اتِّباعه فيها) أي إذا تبيَّن أنَّ الصادر منه زَلَّةٌ فإنَّ من الواجب علينا أن نترك اتِّباعه فيها لتحقُّق خطئه، فإنَّ العالم لا يُتَّبَع لأجل ذاته وإنَّما يُتَّبع لما يُبيِّنه من الحقِّ بدليله، فإذا عرفنا بحكم العلماء الراسخين سوىٰ هذا العالم أن ما بدر منه هو زلة وجب علينا ألا نتَّبعه ولو بلغت محبته شغاف قلوبنا، فإنَّ من نحبه من أهل العلم هم أحباؤنا ولكنَّ الحقَّ أحبُّ إلينا منهم.

ثم قال: (والرابع: التماسُ العُذرِ له بتأويلٍ سائغ) أي طلب إعذاره بحمل كلامه علىٰ وجهٍ مُحْتَمَل يمكن أن يكون مرادُه.

ثم قال: (والخامس بذل النصح له بلطف وسر لا بعنف وتشهير) لأنَّ المراد كفُّه عن تلك الزَّلَّة لا التَّشفِّي بوقوعها منه، فإنَّ الفرح بزلة العالم من دلائل نقص الإيمان، فإنَّ المؤمن لا يحب لمن يُقتدىٰ به في العلم والدين من العلماء إلا أن يكونوا علىٰ الوجه الأتم، فإذا صدر من أحدهم زلة من الزَّلات لم يكن من الديانة الفرح بتلك الزَّلَّة وإشاعتها فرحًا بذلك، بل يكون الحاملُ للعبد الشفقة والرحمة علىٰ ما وقع فيه ذلك العالم من الخطأ ويُرفع ذلك ببذل النصح له بسرٍّ ولُطفٍ؛ لأنَّ المراد هو كفُّه عن غيِّه لا تماديه فيه، وإذا نُصح علىٰ وجه اللطف والسر فإنه أحرىٰ أن ينزع عن تلك الزلة، أما إذا أُفشي ذكر زلته وعُومل بالتشهير فيها فإنه يتمادىٰ في باطله؛ إذ الله ﷻ قسم طبائع النفوس، ومن طبائع النفوس أنَّ العبد يُحبُّ الانتصار لنفسه، ولرُبَّما انتصر لها بالباطل.

ثم قال: (والسادس: حفظ جنابه) أي حفظ قدره، فالجناب القدر، (فلا تُهدر كرامتُه في قلوب المسلمين) أي لا يُسقط من نفوسهم.

ثم قال بَعْدُ: (ومما يُحذَّرُ منه مما يتَّصل بتوقير العلماء ما صورته التوقير ومآله الإهانة والتحقير) فإنَّ النَّاس يُفنِّنُون أنواعـًا يزعمون أنَّها من التوقير وحقيقتُها الإهانةُ والتحقير، فمن أراد أن يُعظِّم عالمـًا تحرَّىٰ وجه التعظيم الذي ذكره أهل العلم، أما استنباطه نوعـًا جديداً رُبَّما أوقعه في شيءٍ هو مما يكون تحقيراً لذلك العالم، قال: (كالازدحام علىٰ العالم والتضييق عليه وإلجائه إلىٰ أعسر السبل) فإنَّ هذا مما يُخالف إجلاله، وهؤلاء تحملهم المحبَّة علىٰ ذلك، لكنَّ المحبَّة لا تُتْبَع؛ وإنَّما يُتْبَعُ ما ينفع، والذي ينفع

ألا يُزدحَم عليه حتىٰ يُضيَّق عليه ويُلجأ إلىٰ أعسر السبل، فإنَّه ربما لحقه ضرر في صحته ونفسه بسبب هذا، وما مات هُشَيم بنُ بشيرٍ الواسطي رَحِمَهُ اللَّهُ إلا لمَّا ازدحم عليه أصحابُ الحديث فرحًا بمجيئه ورغبةً في الانتفاع به، فسقط رَحِمَهُ اللَّهُ عن حماره ومات من سقطته تلك.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الخامس عشر:

ردُّ مُشْكِلِه إلىٰ أهله.

فالمعظم للعلم يُعوِّل علىٰ دَهاقنته والجهابذةِ من أهله لحل مشكلاته، ولا يُعرِّضُ نفسه لما لا تُطيق؛ خوفًا من القول علىٰ الله بلا علم، والافتراء علىٰ الدين، فهو يخاف سَخْطَة الرحمن قبل أن يخاف سوط السلطان؛ فإن العلماء بعلمٍ تكلموا، وببصرٍ نافذٍ سكتوا، فإن تكلَّموا في مُشْكِل فتكلم بكلاهم، وإن سكتوا عنه فَلْيَسَعك ما وسعهم.

ومن أشقِّ المشكلات الفتن الواقعة، والنوازل الحادثة، التي تتكاثر مع امتداد الزمن.

والناجون من نار الفتن، السالمون من وَهج المِحَن، هم مَن فَزع إلىٰ العلماء ولزم قولهم، وإن اشتبه عليه شيءٌ من قولهم أحسن الظن بهم، فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتجربةُ والخبرةُ هم كانوا أحقَّ بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالهم لزم قول جمهورهم وسوادهم؛ إيثارًا للسلامة؛ فالسلامة لا يعدلها شيءٌ.

وما أحسن قولَ ابن عاصمٍ في «مرتقىٰ الوصول»:

وواجبٌ في مشكلاتِ الفهمِ ... تحسيننُا الظَّنَّ بأهلِ العلمِ

ومن جملة المشكلات ردُّ زلاتِ العلماء، والمقالاتِ الباطلة لأهل البدع والمخالفين؛ فإنَّما يتكلم فيها العلماء الراسخون.

بيَّنه الشاطبيُّ في «الموافقات»، وابنُ رجبٍ في «جامع العلوم والحكم».

فالجادَّة السالمة: عرْضُها علىٰ العلماء الراسخين، والاستمساك بقولهم فيها.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد الخامس عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (ردُّ مشكله إلىٰ أهله)

والمُشكل من العلم هو ما غَمُضَ منه، فإنَّ مسائل العلم ليست علىٰ وجهٍ واحدٍ من الوضوح، فهي مُخْتَلِفَةُ الرُّتبة فيه، ومن جملةِ ذلك ما يَغْمُضُ منها إمَّا بالنَّظر إلىٰ المسألةِ نفسِها أو بالنَّظر إلىٰ حالٍ عارضةٍ تتعلَّقُ بها.

ثم قال: (والمعظم للعلم يعول علىٰ دهاقنته والجهابذة من أهله لحل مشكلاته) أي يفزع إلىٰ هؤلاء، والدهاقنة: جمع دُهقان بضم الدال وتفتح وتكسر أيضا، فهي مثلثة، يقال دُهقان، ودَهقان، ودِهقان، والدُّهقان هو قويُّ التصرف في حِدَّة، والمراد بالحِدَّة هنا المبادرةُ والجزم، فإنَّ المبادرَ علىٰ

وجهِ الجزم قويَّ التصرُّفِ في العلم هو أحرىٰ بأن يرفعَ الإشكالَ الواقع في أمرٍ ما، والجهابذة جمع جِهْبِذ بكسر الجيم وتُفتحُ أيضـًا، فيقال: جِهبذ وجَهبذ؛ وهو الخبيرُ ببواطن الأمور، فالمفزع هو إلىٰ هؤلاء المتصفين بهذه الصفات من القوة والدراية بحقائق الأمور.

ثم قال: (ولا يعرِّض نفسه لما لا تطيقه) أي من سؤال الله ﷻ، (خوفـًا من القول علىٰ الله بلا علم والافتراء علىٰ الدين فهو يخاف سخطة الرحمن قبل أن يخاف سوط السلطان) فالحامل له علىٰ الفزع إلىٰ هؤلاء لأنَّهم هم أهلها وأحرىٰ بكشفها، فهو يبتغي حفظَ دينِه وسلامتَه من أن يقع فيما يكرهه الله ﷻ ويأباه.

ثم قال: (فإنَّ العلماء بعلمٍ تكلَّموا، وببصرٍ نافذٍ سكتوا) فالعالمُ له في الواردات الواقعة من المشكلات حالان:

الحال الأولىٰ: أن يتكلم، فإذا تكلم فإنَّما ينطق بعلم.

والحال الثانية: أن يسكت، فإذا سكت فإنما يسكت ببصر نافذ، والبصر النافذ شيءٌ زائدٌ عن مجرد العلم، فإنَّ البصر النافذ هو خبرةُ المُتكلِّم بالحال التي ينبغي أن يكون عليها في أمرٍ ما، فمُنتهىٰ نظره لا يقف علىٰ مجرد العلم في هذه المسألة بل يرىٰ وراء ذلك من المصالح المُرتقبة، أو المفاسد المتوقَّعة ما يحمله علىٰ السكوت، فحينئذٍ (إن تكلموا في مشكل فتكلم بكلامهم وإن سكتوا عنه فليسعك ما وسعهم) لأنَّ الحامل لهم علىٰ الكلام هو العلم، والحامل لهم علىٰ السكوت هو البصر النافذ؛ وهو شيءٌ زائدٌ عن مجرَّدِ العلم، ولرُبَّما رأيتَ عندي وأمثالي شيئًا من العلم؛ لكنَّ البصرَ النافذَ لا يكونُ مُستجْلبًا إلا بأمورٍ نفتقدُها؛ أقلُّها كِبَرُ السِّنِّ وطُولُ التَّجربة، فإنَّ كِبَرَ السِّنِّ وطُولَ التَّجربة تُكسب العالم آلةً لا تكون عند فاقدها، فمن شدىٰ شيئًا من العلم صار مشاراً إليه فيه من الشباب يفتقرُ إلىٰ هذه الآلة، فمثل هؤلاء لا يأْبَه المرءُ بمقالاتهم في المشكلات، لأنَّ هؤلاء يعلمون المسائل والدلائل لكنَّهم لا يعلمون حقائقَ الأمور؛ إذ ليس لهم من طول التجربة وكثرة الممارسة ما لا يكون لغيرهم، وإذا بدر في ذهنك أنَّ هذا العالم إنما تكلَّم لأمرٍ أو سكت لأمرٍ فلا تجعلْ ذلك في ذمَّتك فيطالبُك الله ﷻ به؛ لأنَّ الدينَ دينُ الله والأمرُ أمرُ الله، والله ﷻ لا يتخيَّرُ لهذا العلم إلا أُمناء، وإذا ظننتَ أنَّ الله ﷷ يَضعُ العلمَ عند الخونة فقد ظننت ظنَّ السُوء بالله ﷻ، وكثيرٌ من المُنتسبين إلىٰ العلم والخير يظنُّون بالله ظنَّ السُّوء في جعله العلمَ عند من ليس من أهله، فينظرون إلىٰ هؤلاء أنَّهم يتكلَّمون علىٰ وجه الخيانةِ في الدِّين،

والطعنُ فيهم ليس طعنـًا في ذواتهم وإنَّما هو طعنٌ في الله ﷻ إذ جعل أمانةَ الدِّين عند من ليسوا مُستأمَنين، وإنَّما يرفعُ عنك هذا الإشكال الذي يَرِدُ عليك أن تُسلِّم لله ﷻ وأن تَكِلَ الأمرَ إليه، فالله ﷻ لا يُضيِّعُ دينَه، وليس هذا الدين حَكْراً علىٰ فلانٍ ولا فلان، ولا بُدَّ أن يُظهرَ الله ﷻ الحقَّ علىٰ لسانِ أهله، فإذا رأيتَ العلماء تكلَّموا في شيءٍ فتكلَّم بكلامهم، وإذا سكتوا عن شيءٍ فاسكُت كما سكتوا، فإنَّه يَسعُك ما وسعهم، وكثيرٌ من النَّاس يذكرُ مدحَ الصمت وقِلَّةَ الكلام والسكوتَ عمَّا لا ينفع، فإذا جاءت النوازل رأيتَ أن هذه الأمور ملقاةً وراء الظهور، ويحفظُ أحدُنا القولةَ المشهورة: "لو أنَّ هذه الواقعة وقعت زمن عمر لجمع لها البدريِّين" فإذا كان عمر يجمع لها رؤوسَ النَّاس فإنَّ الحقيقَ بالواحدِ مِنَّا وإن كان رأسـًا في النَّاس أن يعلم أنَّه مفتقرٌ إلىٰ جمعٍ سِواه حتىٰ يصلوا إلىٰ ما يَظنُّون أنَّه هو الخيرُ للمسلمين فتبرأُ ذِمَّتُهم ويسقطُ الطلبُ عند الله ﷻ.

ثم قال بعد ذلك: (ومن أشقِّ المُشْكِلات الفتنُ الواقعة والنوازلُ الحادثة التي تتكاثر مع امتداد الزمن) فأولىٰ ما يكون تسليمُك بهذا الأمر تعظيمـًا للعلم؛ وهو ردُّ مشكله إلىٰ أهله أن ترقُب ردَّ المُشكل إليهم في الفتن الواقعة والنوازل الحادثة.

ثم قال: (والناجون من نار الفتن السالمون من وهج المحن هم من فزع إلىٰ العلماء ولزم قولهم وإن اشتبه عليه شيءٌ من قولهم أحسن الظن بهم فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتجربةُ والخبرةُ هم كانوا أحق بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالهم لزم قول جمهورهم وسوادهم إيثاراً للسلامة، فالسلامة لا يعدلها شيء) والسَّلامة المرادة هي السَّلامة عند الله ﷻ، فإنَّ سلامة ذمَّتك وبراءتها وسقوط الطلب عنك إنَّما يكون بذلك.

ثم قال: (وما أحسن قولَ ابن عاصمٍ في «مرتقىٰ الوصول»:

وواجـبٌ في مشـكلاتِ الفهـمِ   تحسـينُنا الظَّـنَّ بأهـلِ العلـمِ)

ثم قال: (ومن جملة المشكلات رد زلات العلماء والمقالات الباطلة لأهل البدع والمخالفين فإنَّما يتكلَّم فيها العلماء الراسخون، بيَّنه الشاطبي في "الموافقات" وابن رجب في "جامع العلوم والحكم") فإنَّ الزَّلَّة التي تَبْدُر من عالمٍ، والمقالة الباطلة التي يروجها أهل البدع والضلال لا يتمكن من نزعها من الناس وردِّها ووأْدِ باطلها إلا العالم الراسخ المُتَمَكِّن، فالأمرُ موكولٌ إليه، وإذا أراد أحدٌ أن يتكلَّم في

ردِّها جَمُلَ به أن يتكلَّم بما تكلَّم به العلماء وإلا فليُمْسِك، (فالجادة السالمة عرضها) يعني المشكلات (علىٰ العلماء الراسخين والاستمساك بقولهم فيها).

قال المصنف وفقه الله:

المعقد السادس عشر:

توقير مجالس العلم، وإجلال أوعيته.

فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء.

قال سهل بن عبد الله: «من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان، أيُّ شيءٍ تقول في رجل حلف علىٰ امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طَلَقَت امرأته، ويجيءُ آخر فيقول: ما تقول في رجلٍ حلف علىٰ امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يَحنَث بهذا القول، وليس هذا إلا لنبيٍّ أو لعالمٍ، فاعرفوا لهم ذلك».

فعلىٰ طالب العلم أن يعرف لمجالس العلم حقها، فيجلس فيه جلسة الأدب، ويصغي إلىٰ الشيخ ناظرًا إليه؛ فلا يلتفت عنه من غير ضرورة، ولا يضطرب لضجةٍ يسمعها، ولا يعبَثُ بيديه أو رجليه، ولا يستَنِدُ بحضرة شيخه، ولا يتَّكئُ علىٰ يده، ولا يُكثر التَّنحنح والحركة، ولا يتكلَّم مع جاره، وإذا عطس خفض صوته، وإذا تثاءب ستر فمه بعد رده جَهْده.

وينضم إلىٰ توقير مجالس العلم إجلال أوعيته التي يُحفظ فيها، وعمادها الكتب، فاللائق بطالب العلم: صونُ كتابه، وحفظُه وإجلاله والاعتناء به، فلا يجعله صندوقا يحشوه بودائعه، ولا يجعله بوقًا، وإذا وضعه وضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

رمىٰ إسحاق بن راهَوَيْه يومًا بكتابٍ كان في يده، فرآه أبو عبد الله أحمد بن حنبلٍ فغضب، وقال: «أهكذا يُفعل بكلام الأبرار؟!».

ولا يتَّكئُ علىٰ الكتاب، أو يضعُهُ عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخٍ رفعه عنِ الأرض، وحَمَلَهُ بيديه.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد السادس عشر من معاقد تعظيم العلم وهو (توقير مجالس العلم) أي إجلالها وإكرامها (وإجلال أوعيته) يعني ما يُحفظ فيه العلم من وعاءٍ، وعلَّله بقوله: (فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء) لما فيها من ميراث النبوة، فإن النبي ﷺ لم يترك إرثًا إلا العلم، فمجالس العلم فيها ميراث النبي ﷺ، وذكر كلام سهل بن عبد الله التستري أنه قال: (من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء) أي أنَّها بمنزلة مجالس الأنبياء، فإنَّ الأنبياء كانوا يبيِّنون حكمَ الله فيما

يحتاج إليه الناس، والعلماءُ ورثةٌ لهم في ذلك، فإنَّهم يبيِّنون حكمَ الله فيما يحتاج إليه الناس من نكاحٍ أو طلاقٍ أو يمينٍ أو عِتَاقٍ أو غير ذلك.

ثم قال: (فعلىٰ طالب العلم أن يعرف لمجالس العلم حقَّها) أي الذي جُعل لها شرعًا، فهو ليس ممَّا تعارف عليه النَّاس وصار حقًا لازمًا بينهم مما يَصطلح عليه الناسُ من الآداب التي يحفظون بها مقاماتِ بعضهم بعضًا، بل هذا حقٌّ أوجبتْه الشريعة،(فيجلس فيها جلسة الأدب) أي الجلسة التي تكون علىٰ وجه الأدب، (ويُصغي إلىٰ الشيخ ناظراً إليه) أي يُلقي سمعه إلىٰ شيخه ناظراً ببصره إليه، (فلا يلتفت عنه من غير ضرورة) أي لا يصرف وجهه عنه بالالتفات يمنة أو يسرة من غير ضرورة لأنه يتَحدثُ إليه، فهو لا يتَحدثُ إلىٰ واحدٍ دون من يحضر مجلسه، بل يتحدثُ إلىٰ كلِّ واحدٍ ممَّن هو حاضر مجلسه.

(ولا يضطرب لضجةٍ يسمعها) أي لا يتحرك مضطربًا لأجل ضجةً يسمعها، فلو قُدِّر أنَّ هذا الباب قُرِع بشدةٍ فإنَّه ليس من الأدب أن تلتوي الأعناق إليه جميعًا وتترك المُعلِّم الذي يتحدث إليهم، فإنَّ المُعلِّم جالسٌ يتحدث إلىٰ هؤلاء وليس من الأدب الانصرافُ عنه بالالتفات إلىٰ تلك الضجة.

ومن لطائف الحكايات أنَّ شيخَ شيوخنا عبد الله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأدركتُه صغيراً أنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يومًا في مجلسِ درسه في مسجده في بُريدة فدخلت المسجد بقرةٌ فانصرف إليها الناسُ واشتغلوا بها وكان أعميً ذكيًا، فهو كان كفيفَ البصر لكنَّه كان ذكيًا، فإنَّه أحسَّ بانشغال الناس بالحركة التي آنسها منهم، فلمَّا آنس منهم التفاتهم إلىٰ البقرة قال: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك" وأخذ نعليه ومشىٰ، لمَّا انصرفوا إلىٰ البقرة ليش جالسين يدرسون عنده ما دام يجلسون ينظرون في البقر؟ فأراد أن يؤدبهم بأن الجالس إلىٰ المعلم يقبل عليه فيما يعلِّمه ولا ينصرف عنه إلىٰ غيره مهما كان ذلك الحادي الذي حداه.

ثم قال: (ولا يعبث بيديه أو رجليه ولا يستند بحضرة شيخه ولا يتكئ علىٰ يده ولا يكثر التنحنح والحركة ولا يتكلم مع جاره وإذا عطس خفض صوته وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جهده) فهذه من جملة الآداب التي يُعظَّمُ بها العلم.

ثم قال بعد ذلك: (وينضم إلىٰ توقير مجالس العلم) أي من جملة ما يُعَدُّ من أدب مجلس العلم (إجلال أوعيته) أي تعظيم ما يُحفظُ فيه العلم.

قال: (وعمادها الكتب) أي أعظمُ شيء يحفظ فيه العلم اليوم ومن قبل هو الكتب، فاللائقُ بطالب العلم (صون كتابه وحفظه وإجلاله والاعتناء به، فلا يجعله صندوقا يحشوه بودائعه) أي لا يجعله بمنزلة الصندوق الذي يُستعمل خزانةً، فإنَّ النَّاس كانوا يحفظون أشياءهم فيما سبق من مالٍ أو ثيابٍ وغيرها في صناديق، فلا يجعل الكتاب بهذه المنزلة فتجده يضعُ فيه أوراقًا وأقلامًا ومالاً وغير ذلك من الأشياء التي تُحفظ، فيكون الكتاب بمنزلة الصندوق الذي يَحفظ تلك الأشياء، (ولا يجعله بوقًا) أي لا يطوِه ويَردَّ بعضَه إلىٰ بعض حتىٰ يكون مستديراً بمنزلة البوق الذي يُنفخ فيه (وإذا وضعه وضعه بلطف وعناية).

ثم ذكر حكاية لطيفة في ذلك قال: (رمىٰ إسحاق بن راهويه يومًا بكتاب كان في يده) يعني ألقاه، (فرآه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فغضب وقال: أهكذا يفعل بكلام الأبرار؟) يعني هذا الكتاب الذي ألقيته فيه كلام الصالحين، وفي هذه الكتب ما هو أعلىٰ من ذلك ككلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ فلا ينبغي أن يُفعل ذلك بها.

ثم قال: (ولا يتكئ علىٰ الكتاب أو يضعه عند قدميه وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخ رفعه عن الأرض وحمله بيديه) فإنَّ من الأدب قدر المستطاع ألا يوضع الكتاب علىٰ الأرض بل يرفع في مكان صالح له تعظيمًا للعلم، وإذا كان المكان يفتقد ما يوضع فيه الكتاب ساغ وضعه علىٰ الأرض لا حال الدرس، وأما حال الدرس فإنه لا يليق بمن يلتمس العلم أن يضع الكتاب علىٰ الأرض ثم يزعم أنَّه يقرأ في هذا الكتاب علىٰ الشيخ أو يحضر هذا الكتاب عند الشيخ، فإنَّ من أراد أن يحضر عند شيخ حمل الكتاب بيديه تعظيمًا له فإنَّه أحرىٰ أن يصل العلمُ إليه، فإذا رفع طالبُ العلم الكتاب كان أقربَ لعينيه وقلبه، فأحرىٰ أن يصل العلم إليه، وإذا ألقىٰ الكتاب علىٰ الأرض وأبعده عنه فإنَّه بعيدٌ عن عينيه وعن قلبه، فأحرىٰ ألا يصل العلم إليه، فمن عظَّم أوعية العلم ولا سيَّما الكتب كان ذلك من دلائل تعظيمه العلم فصار حقيقًا بالعلم، والذي لا يُبالي بالعلم ومن جملة ذلك ألا يبالي بأوعيته فإنَّه يُخِلُّ بعظمةِ العلم فأحرىٰ أن ينقصَ انتفاعه بالعلم.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد السابع عشر:

الذَّبُّ عن العلم، والذَّود عن حِياضه.

إن للعلم حُرمةً وافرةً، توجب الانتصارَ له إذا تُعرِّض لجنَابه بما لا يصلحُ.

وقد ظهر هذا الانتصار عند أهل العلم في مظاهر؛ منها: الرد علىٰ المخالف، فمن استبانت مخالفته للشريعة رُدَّ عليه كائنًا من كان؛ حَمِيَّةً للدِّين، ونصيحةً للمسلمين.

ومنها: هجرُ المبتدعِ؛ ذكره أبو يعلىٰ الفرَّاء إجماعًا.

فلا يُؤخذ العلم عن أهل البدع؛ لكن إذا اضْطُرَّ إليه فلا بأس، كما في الرواية عنهم لدىٰ المحدِّثين.

ومنها: زجر المتعلم إذا تعدَّىٰ في بحثه، أو ظهر منه لَدَدٌ أو سوءُ أدبٍ.

وإن احتاج المعلم إلىٰ إخراج المتعلم من مجلسه؛ زجرًا له فليفعل كما كان يفعله شعبة — رَحِمَهُ ٱللَّهُ — مع عفَّانَ بن مسلمٍ في درسه.

وقد يُزجر المتعلم بعدم الإقبال عليه، وتركِ إجابته، فالسكوت جوابٌ؛ قاله الأعمش.

ورأينا هذا كثيرًا من جماعةٍ من الشيوخ؛ منهم العلامة ابن باز — رَحِمَهُ ٱللَّهُ —، فربما سأله سائل عما لا ينفعه، فترك الشيخ إجابته، وأمر القارئ أن يواصل قراءته، أو أجابه بخلاف قصده.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد السابع عشر من معاقد تعظيم العلم وهو: (الذبُّ عن العلم والذود عن حياضه) أي الدفاع عن العلم وعلَّله بقوله: (إنَّ للعلم حرمةً وافرة توجب الانتصار له إذا تُعرِّض لجنابه بما لا يصلح) أي يُذبُّ عن العلم ويُذاد عن حياضه لأنَّ له حرمة، والحُرَمُ إنَّما تُحْفَظُ بالذود عنها، فمن ذاد عن حُرمةٍ ودافع عنها حُفظت وبقيت، ومن لم يقم بحقها من حفظها بالذود والدفاع انتُهكت.

ثم ذكر مظاهر لانتصار أهل العلم له، منها: (الرد علىٰ المخالف، فمن استبانت مخالفته للشريعة رد عليه كائنًا من كان حمية للدين ونصيحة للمسلمين).

قال الإمام أحمد: لم يزل الناس يرد بعضهم علىٰ بعض. انتهىٰ كلامه.

فإذا وقع أحد في مخالفة حق العلم وحقيقته كان من الذود عن العلم والذب عن حياضه أن يُبيَّن خطأ ذلك المخطئ بدليله، (ومنها هجر المبتدع، ذكره أبو يعلىٰ الفراء إجماعًا) فمن إجماعات

المسلمين اتفاقهم علىٰ هجر أهل الضلال المبتدعين لأنَّ هؤلاء منتهكون لحُرمةِ العلم والدين، فَمِنْ حفظِ العلم والدين هجرهم وترك مجالستهم وصحبتهم.

ثم قال: (ولا يؤخذ العلم عن أهل البدع لكن إذا اضطر إليه) ككونه في دراسة نظامية ونحوها فلا بأس (كما في الرواية عنهم لدىٰ المحدثين، ومنها زجر المتعلم إذا تعدَّىٰ في بحثه) أي إذا تجاوز في بحثه، (أو ظهر منه لدد) يعني خصومة (أو سوء أدب) فإذا وقع شيءٌ من ذلك من المتعلِّم فإنَّه يُزجر عن ذلك ويُنهىٰ عنه علىٰ وجه التغليظ، (وإن احتاج المعلم إلىٰ إخراج المتعلم من مجلسه زجراً له فليفعل كما كان يفعله شعبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع عفان بن مسلم في درسه) فإنَّ عفان ربما اشتدَّ قوله لشيخه شعبة فأخرجه شعبة من مجلسه، ثم يأتي عفان في المجلس الآخر لأنَّه يريد الانتفاع بعلمه فيجلس إليه، فإذا بدر منه شيءٌ يستحقُّ عليه أن يخرجه من مجلسه أخرجه من مجلسه حفظًا للعلم.

ثم قال: (وقد يزجر المتعلم بعدم الإقبال عليه وترك إجابته) فتجده يسأل سؤالا ثم لا يجيبه شيخه لأن من تأديبه زجره بذلك، قال: (فالسكوت جواب، قاله الأعمش) فمن مقالات الأعمش البديعة أنَّه قال: السكوت جواب؛ أي ممَّا يُجابُ به بعضُ النَّاس، فإنَّ بعضَ النَّاس يَستحقُّ الإجابةَ عن سؤاله، وبعضُهم لا يكون جوابُه إلا السكوتُ عن سؤاله.

ثم قال: (ورأينا هذا كثيرا من جماعة من الشيوخ منهم العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فربما سأله سائل عما لا ينفعه فترك الشيخ إجابته وأمر القارئ أن يواصل قراءته أو أجابه بخلاف قصده) لأن من حفظ العلم أن يُعامل هذه المعاملة فلا تُنتهك حرمة العلم بمثل إجابة ذلك السائل.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد الثامن عشر:

التحفظ في مسألة العالم.

فرارًا من مسائل الشَّغْب، وحفظًا لهيبة العالم؛ فإنَّ من السؤال ما يُراد به التشغيب وإيقاظ الفتنة وإشاعة السوء، ومن آنس منه العلماء هذه المسائل لقي منهم ما لا يُعجبه، كما مرَّ معك في زجر المتعلم، فلابد من التحفظ في مسألة العالم، ولا يُفلح في تحفظه فيها إلا من أعمل أربعة أصول:

أولها: الفكر في سؤاله لماذا يسأل؟ فيكون قصده من السؤال التفقه والتعلم، لا التعنت والتهكم؛ فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرم بركة العلم، ويُمنع منفعته.

الأصل الثاني: التَّفطن إلىٰ ما يَسأل عنه؛ فلا تسأل عمَّا لا نفع فيه؛ إمَّا بالنظر إلىٰ حالك، أو بالنظر إلىٰ المسألة نفسها.

ومثله السؤال عمَّا لم يقع، أو ما لا يُحدَّث به كلُّ أحدٍ، وإنما يُخصُّ به قومٌ دون قومٍ.

الأصل الثالث: الانتباه إلىٰ صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يسأله في حالٍ تمنعه، ككونه مهمومًا، أو متفكرًا، أو ماشيًا في طريقٍ، أو راكبًا سيارته، بل يتحين طيب نفسه.

الأصل الرابع: تيقظ السائل إلىٰ كيفية سؤاله، بإخراجه في صورةٍ حسنةٍ متأدبةٍ، فيقدِّم الدعاء للشيخ ويبجّله في خطابه، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهلَ السوق وأخلاطَ العوام.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد الثامن عشر من معاقد تعظيم العلم وهو: (التحفظ في مسألة العالم) أي طلب الصيانة للنفس في مسألة العالم تحقيقًا لما ذكره بقوله: (فرارا من مسائل الشَّغْب) والشَّغْب بسكون الغين هو تهييجُ الشرِّ وإثارتُه، ولا يُقال: الشَّغَب بفتح الغين في أصحظظِّ قولي أهل العلم، (وحفظًا لهيبةِ العالم) فالحامل علىٰ طلب الصيانة في السؤال أمران:

أحدهما: الفرارُ من مسائل تحرك الشرَّ وتثيره.

والآخر: الإعانةُ علىٰ حفظ هيبة العالم.

ثم قال: (فإنَّ من السؤال ما يراد به التشغيب وإيقاظ الفتنة وإشاعة السوء، ومن آنس منه العلماء هذه المسائل لقي منهم ما لا يعجبه كما مر معك في زجر المتعلم، فلا بدَّ من التحفظ في مسألة العالم).

ثم ذكر أصولاً أربعة يعين امتثالها علىٰ صيانة النفس في سؤال العالم:

(أولها: الفِكْرُ في سؤاله لماذا يسأل) أي أيُّ شيءٍ يحرِّكُ نفسَه للسؤال، (فيكون قصده من السؤال التفقه والتعلُّم) أي طلب الفقه والعلم، (لا التعنُّت والتهكم) أي لا طلبُ الحرج والسُّخرية بالعالم، فالعنت هو الحرج، (فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرمُ بركةَ العلم ويُمنعُ منفعتَه) فإذا كان الحامل للسائل إرادة المشقة علىٰ العالم بإلجائه إلىٰ ما لا يُريد من القول، أو كان الحاملُ علىٰ ذلك طلب الهُزْءِ والسُّخرية به فإنَّ هذا القصد السيئَ يرجعُ علىٰ سائله بحرمانه بركة العلم، وهذا من أسباب حرمان العلم في هذه الأزمان، فإنَّ من السُّؤَّال وهم كثير من لا يسأل إلا طلباً للحرج بالعالم أو تهكماً وسُّخريةً به فيعاقبون بحرمانهم من العلم.

ثم ذكر الأصل الثاني وهو (التفطن إلىٰ ما يسأل عنه) أي إمعانُ النَّظر في مقصوده من هذا السؤال الذي يَسأل عنه لأيِّ شيء يسأل، وهل هذا الذي يسأل عنه فيه منفعةٌ أم لا؟ قال: (فلا تسأل عما لا نفع فيه إمَّا بالنظر إلىٰ حالك) كأن يسأل عن شيء ليس مما يفتقرُ إليه، مثل: يأتيك طالب في المتوسط فيقول: رجل حلف في طلاق امرأته فقال: كيت وكيت وكيت، طالب متوسط وش علاقته بالطلاق؟ تسأله تقول له: لماذا تسأل؟ قال: والله واحد من جماعة المسجد قال: شف واحد من المشايخ واسأله، إذاً رح خَلَّه هو يجي يسأل، أنت لا تصير وكيل علىٰ النَّاس، هذا لا نفع له فيما يسأل، قال: (أو بالنظر إلىٰ المسألة نفسها) يعني يسأل عن مسألة لا تنفعه هو، هي في نفسها نافعة لكن ليست بالنسبة إليه هو نافعة، (ومثله السؤال عمَّا لا يقع أو ما لا يُحدَّثُ به كُلُّ أحد وإنَّما يُخصُّ به قومٌ دون قوم) فإنَّ من حفظ العلم أن يكون فيه شيءٌ يُخصُّ به قومٌ دون قوم، وترجم له البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب العلم وسيأتي في كتاب التوحيد في مسائل الباب الأول.

ثم ذكر الأصل الثالث وهو (الانتباه إلىٰ صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله) أي كون حال الشيخ موافقةً للإجابة، صالحةً لإيراد السؤال عليه، (فلا يسأله في حال تمنعه ككونه مهموماً أو متفكِّراً) يعني متأمِّلاً، (أو ماشياً في طريق أو راكباً سيارته) لأنَّ هذه الأحوال فيها شواغل عارضة تمنع اجتماع الفكر، فالعاقل من العلماء لا يبادرُ بالجواب حينئذ، سأل رجلٌ عبد الله بن المبارك وهو يمشي، فقال له عبد الله بن المبارك: "ليس هذا من توقير العلم"، يعني ليس من توقير العلم أن أجيبك وأنت سائلي وأنا في حال اشتغال بالمشي لأصل إلىٰ أمر أطلبه، وكان شيخ شيوخنا محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لا يجيبُ سائلاً سأله حتىٰ يجلس، فإذا جلس وأخذ مجلسه وارتاح فيه واجتمعت نفسه أذن بالسؤال حينئذٍ.

ثم قال: (الأصل الرابع: تيقظ السائل إلىٰ كيفية سؤاله بإخراجه في صورةٍ حسنةٍ متأدبةٍ) فلا يُلقي سؤاله كيفما وقع في نفسه لأول مرة بل يُعيدُ النَّظر في صيغةِ إيراد هذا السؤال، (فيُقدِّم الدعاء للشيخ) بأن يقول: أحسن الله إليك، (ويبجله في خطابه) بأن يقول: يا شيخنا؛ ونحو ذلك من الألفاظ التي تدلُّ علىٰ التعظيم والإجلال له، (ولا تكون مخاطبته له كمخاطبة أهل السوق وأخلاط العوام) أي لا يخاطب العالم الذي يريد أن يسأله كمخاطبته لعموم أهل النَّاس من محترفي الدنيا كأهل الأسواق أو دهماء الخلق من العوام، بل يتأنق في سؤال العالم حتىٰ يقع ذلك السؤال من نفس العالم موقعه ثم يرشدك إلىٰ ما ينفعك في جواب مسألتك.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد التاسع عشر:

شغفُ القلب بالعلم وغلبته عليه.

فصدق الطَّلب لـه يوجـب محبَّته، وتعلُّقَ القلـب بـه، ولا ينـال العبـد درجـة العلـم حتىٰ تكـون لذتـه الكبرىٰ فيه.

وإنما تُنال لذّة العلم بثلاثة أمورٍ، ذكرها أبو عبد الله ابن القيّم – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –:

أحدها: بذل الوُسْع والجَهْد.

وثانيها: صدق الطَّلب.

وثالثها: صحة النية والإخلاص.

ولا تتم هذه الأمور الثلاثة، إلا مع دفع كل ما يُشْغِلُ عن القلب.

إنَّ لذة العلم فوق لذة السلطان والحكم التي تتطلع إليها نفوس كثيرة، وتُبـذَل لأجلهـا أمـوالٌ وفيـرةٌ، وتُسفَك دماءٌ غزيرة.

ولهذا كانت الملوكُ تتوقُ إلىٰ لذَّة العلم، وتُحِسُّ فقدَها، وتطلُب تحصيلها.

قيل لأبي جعفرٍ المنصور – الخليفة العباسي المشهور، الذي كانت ممالكه تملأ الشرق والغرب –: هل بقي من لذَّاتِ الدنيا شيءٌ لم تنله؟ فقال – وهو مستوٍ علىٰ كرسيِّه وسرير ملكه –: «بقيت خَصـلةٌ: أن أقعدَ علىٰ مِصْـطَبَةٍ، وحـولي أصـحاب الحـديث – أي طـلابُ العلـم – فيقـول المستملي: مَـن ذكـرت رحمك الله؟»

يعني فيقول: حدَّثنا فلان، قال: حدَّثنا فلانٌ، ويَسُوق الأحاديث المسندة.

ومتىٰ عُمِر القلب بلذَّة العلم سقطت لذَّاتُ العادات، وذهَلَـتِ الـنَّفسُ عنهـا؛ بـل تسـتحيل الآلامُ لـذَّةً بهـذه اللذة.

ذكر المصنف وفقـه الله المعقـد التاسـع عشـر مـن معاقـد تعظـيم العلـم وهـو: (شـغف القلـب بـالعلم وغلبته عليه) والمراد بالشغف شدَّة المحبة، وأصْلُها من شَـغَافِ القلـب وهـو باطنُـه، فـإذا عَلَـقَ في القلـب شيءٌ علىٰ وجه اللصوق به قيـل: قـد بلـغ مـن القلـب شَـغَافَه؛ يعنـي باطنَـه فيكـونُ شـديدَ الحُـبِّ لـه، قـال: (فصدق الطلب له) أي للعلم، (يوجب محبته وتعلق القلـب بـه ولا ينـال العبـد درجـة العلـم حتىٰ تكـون

لذته الكبرىٰ فيه) أي لا يدرك العبد العلم الذي ينتفع به ويُفتقر إليه حتىٰ تكون لذَّته الكبرىٰ من لذَّات الدنيا هي لذَّة العلم.

ثم قال: (وإنما تنال لذة العلم بثلاثة أمور) ذكرها أبو عبد الله بن القيم رحمه رَحِمَهُ اللهُ في مفتاح دار السعادة:

(أحدها: بذل الوسع والجهد) أي بذل الطاقة حسب المستطاع في طلب العلم.

(وثانيها: صدق الطلب) أي توحيد المراد في مطلوبه من العلم، فهو لا يَشْغَل قلبه بمرادٍ آخر، ولا يُزاحِمُه في وقته بمطلوب سواه.

(وثالثها: صحة النية والإخلاص فيه) فيكون طلبه للعلم علىٰ وجهٍ صحيحِ النيَّة، حاضرَ الإخلاص، وتقدَّم بيانُ حقيقةِ الإخلاص شرعـًا وأنَّه تصفيةُ القلب من إرادة غير الله.

ثم قال: (ولا تتم هذه الأمور الثلاثة إلا مع دفع كل ما يشغل عن القلب) فإنَّ هذه الأمور الثلاثة تتعلَّق بالتحلية ويقابلها تخليةُ القلب من كلِّ ما يَشغلُه ويمنعُه من بلوغ لذَّة العلم.

ثم ذكر أنَّ (لذة العلم هي فوق لذة السلطان والحكم التي تتطلع إليها نفوس كثيرة وتبذل لأجلها أموال وفيرة وتسفك دماء غزيرة).

ثم ذكر حكايةً تدلُّ علىٰ افتقار الملوك إلىٰ لذَّة العلم وهي قصة (أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور الذي كان ممالكه تملأ الشرق والغرب إذ قيل له: هل بقي من لذات الدنيا شيءٌ لم تنله؟) أي لم تصبه بمالك وجندك وسلطانك، (فقال وهو مستو علىٰ كرسيِّه وسرير ملكه: بقيت خصلة) يعني واحدةٌ من تلك اللذَّات، (أن أقعد علىٰ مِصْطَبَةٍ) يعني علىٰ مكانٍ مرتفعٍ (وحولي أصحاب الحديث -أي طلاب العلم- فيقول المستملي) وهو الذي يستدعي حديث المحدِّث، فإنَّ المحدِّثين كان لأحدهم مستملٍ يستجيش حديثه؛ أي يستدعيه منه، (فيقول: من ذكرت رحمك الله؟) أي من حدثك من الشيوخ، (فيقول: حدثنا فلان قال حدثنا فلان ويسوق الأحاديث المسندة) فهذه اللذَّة بقيت في نفس أبي جعفر المنصور لم ينلها.

ثم قال: (ومتىٰ عُمر القلب بلذَّة العلم) أي إذا تمكنت لذَّةُ العلم من القلب، (سقطت لذَّات العادات) أي ذَهَلَتْ النفس عن اللذَّات التي اعتادها النَّاس، فالأكلُ لذَّة، والشربُ لذَّة، والاجتماعُ بالناس لذَّة، والرَّحلاتُ في البراري لذَّة، وهذه اللذَّات من لذَّات العادات تزول إذا عُمِرَ القلب بلذَّة

العلم، فربما وضِعَ للعالم طعامُه فلم ينتبه إليه لأنَّ قلبه مشغولٌ بلذَّة العلم، فلا ينتبه إليه إلا وقد ذهبت لذةُ ذلك الطعام من حرارته فصار بارداً.

قال: (بل تستحيل الآلام لذة بهذه اللذة) أي إذا استوت لذة العلم في القلب صارت الآلام التي تلحق الإنسان هي من اللذة، فتجد من يقارنه ألمٌ في قراءة في عينيه، أو يُقارنه ألمٌ في بدنه في الحضور إلىٰ مجالس العلم، أو غيره من الآلام التي تكتنفه ومع ذلك تنقلب هذه الآلام إلىٰ لذَّات، ومن الأخبار التي رأيتُها في ذلك أنَّني كنت أجلس إلىٰ شيخنا سُليمان السُّكيت رَحِمَهُ اللهُ رئيس قضاء حائل فكان يقول بعد طول المجلس: يا فلان إنِّي لا أستطيع أن أجلس مع الناس إلا مدةً يسيرة ثم أقوم لإصابته بإدرار البول وهي تستدعي أن يقوم بين الفينة والأخرىٰ علىٰ وجهٍ قريب، فإذا جلستَ معي وتذاكرنا العلم أبقىٰ معك أربع ساعات لا يأتيني هذا الإدرار، يعني هذا المرض يزول منه، فكأنَّما انجذب البول من جوفه ولم يخرج للذَّة العلم التي غلبت عليه، وقد رأيتُ منه صدق ذلك رَحِمَهُ اللهُ، فإنِّي مرة قلتُ له مُبشِّراً: لقد صدر كتابٌ فيه سيرةُ حياةِ شيخك عبد الله بن خلف الدحيَّان قاضي الكويت المتوفىٰ سنة تسع وأربعين وثلاث مائة وألف وكان قرأ عليه **"بلوغ المرام"** و **"أخصر المختصرات"**، فقال لي: لا أحتاج إلىٰ كتابٍ في سيرة شيخي، فإنَّ أخبار شيخي وسيرته وأحواله في قلبي كأنَّها بين عينيَّ الآن، ووالله إنَّ فضله علي ليساوي فضل أبي وأمي أو يفوقهما، ثم بكىٰ بكاءً شديداً، وما طلب هذا الكتاب ولا سألني عنه بعد ذلك لأنَّ عِمارةَ قلبه بالعلم وأهله أغنته عن أن يقرأ كتاب كتبه واحد بعد ستين سنة من وفاة شيخه.

قال المصنف وفقه الله:

المعقد العشرون:

حفظ الوقت في العلم.

قال ابن الجوزي – رحمه الله – في «صيد خاطره»:

"ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يُضيِّع منه لحظةً في غير قربةٍ، ويُقدِّم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل".

ومن هنا عظُمت رعاية العلماء للوقت، حتىٰ قال محمَّد بن عبد الباقي البزَّار: "ما ضيَّعتُ ساعةً من عمري في لهوٍ أو لعبٍ".

وقال أبو الوفاء ابن عقيل – الذي صنَّف كتاب الفنون في ثمانمائة مجلدٍ –: "إنِّي لا يحِلُّ لي أن أُضيِّعَ ساعةً من عمري".

وبلغت بهم الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل؛ بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء.

فاحفظ أيها الطالب وقتك؛ فلقد أبلغ الوزير الصالح ابن هبيرة في نصحك بقوله:

والوقت أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

تمَّت الخُلاصة.

ذكر المصنف وفقه الله المعقد العشرين من معاقد تعظيم العلم وهو: (حفظ الوقت في العلم) لأن الوقت ظرف الأفعال، فلا يتأتَّىٰ للعبد أن يقيم فعلاً يُحصِّله ويطلبه إلا في زمانٍ يكون له، ثم ذكر كلام ابن الجوزي إذا قال: (ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته فلا يضيع منه لحظة في غير قربة ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل) لأن لحظات الزمن إذا مضت انقضت، فإذا إن مضت عليك دقيقة من دقائق الساعة فإنَّها لا تعود أبداً، (ومن هنا عظمت رعاية العلماء للوقت حتىٰ قال محمد بن عبد الباقي البزاز: "ما ضيعت ساعة من عمري في لهو أو لعب") لعلمه بشدَّة الافتقار والاحتياج إلىٰ اغتنام اللحظات في عمارة الزمان بما ينفع من العلم والعمل.

(وقال أبو الوفاء بن عقيل الذي صنف كتاب الفنون في زمنه مائة مجلد: إني لا يحل لي أن أضيع ساعةً من عمري) لإمكان الانتفاع بها، فإنَّه كان عالماً ذكيًّا، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا تعب من الكتابة جلس متفكِّراً متأمِّلاً كما أخبر عن نفسه، فلا يقوم من حال راحته إلا وقد زوَّر في نفسه ما يُقيِّدُه.

قال: (وبلغت بهم الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل) فيُقرأ عليه وهو يأكل، (بل كان يُقرأُ عليهم وهم في دار الخلاء) أي إذا دخل أحدُهم لقضاء حاجته بيت الخلاء قُرئَ عليه؛ فالقارئُ خارجُ دار الخلاء، وإنَّما الذي يَسمع العلم يكون حينئذٍ يكون في دار الخلاء، وليس ذلك مخالفـًا تعظيم العلم إذ ليس فيه جعل العلم في دار الخلاء، وإنَّما المُرادُ اغتنامُ الزَّمان، ولذلك لما استُكثر علىٰ ابن أبي حاتم كثرةُ مسائله أبيه فقال: كنتُ أسألُه إذا كان يأكل وأسألُه إذا كان يمشي وأقرأُ عليه وهو في بيت الخلاء.

ثم قال: (فاحفظ أيها الطالب وقتك؛ فلقد أبلغ الوزير الصالح ابن هبيرة في نصحك بقوله:

والوقت أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه ... وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ)

فأنفسُ شيءٍ ينبغي أن تعتني بحفظه هو الزمن وهو أسهلُ ما يضيعُ عليك، فإنَّ الشمس تمضي ولا تقف، قيل لعامر بن عبد قيس الكوفي وكان من عُبَّاد أهل الكوفة: قف بنا نُكلِّمك ساعة، فقال: إنَّ الشمس لا تقف، يعني إنَّ الزمان لا يقف ولا ينتظرنا فينبغي أن نغتنمه فيما ينفعنا، قال الحسن البصري: أدركتُ أقوامًا أحدهم أشحُّ بوقته من أحدِكم بدراهمه، لأنَّ انتفاعَ العبد بالدراهم يذهب بزوال منفعتها، وأمَّا اغتنامه الزَّمان فيما ينفعه من العلم والعمل يبقىٰ له في بقيةِ حياته وما يستقبل في الآخرة.

وبهذا نكون قد فرغنا بحمد الله ﷻ من هذا الكتاب.

اكتبوا طبقة السماع: سمع علي في الصفحة الخامسة والتسعين: سمع علي جميع لمن سمع الجميع والذي عليه فوت يكتب بعضه، ويكتب مقدار ذلك علىٰ نسخته ويميز الذي فاته، خلاصة تعظيم العلم بقراءة غيره، البياض الثاني بقراءة غيره صاحبنا ويكتب أحدكم اسمه تامًّا فلان بن فلان بن فلان، فتم له ذلك في مجلسين في الميعاد المثبت في محله من نسخته، أي المثبت الأول في أول المجلس الأول تقول بداية المجلس الأول ليلة كذا وكذا، انتهينا من المجلس الأول فقل: نهاية المجلس الأول وتكتب توقيت ذلك بالساعة حتىٰ تعرف كم أمضيت في قراءة هذا الكتاب، ثم المجلس الثاني تكتب بداية المجلس الثاني، يعني عند المعقد الحادي عشر الذي ابتدأنا الليلة تكتب بداية المجلس الثاني ليلة الأربعاء وتكتب توقيت تاريخها.

قال: وأجزت له روايته عني رواية إجازة خاصة من معين لمعين في معين والحمد لله رب العالمين صحيح ذلك وكتبه صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي ليلة، اضربوا علىٰ كلمة يوم، معناها اشطبوا الآن لكن الفصيح أن تقول اضربوا علىٰ كلمة يوم تبقىٰ ليلة الأربعاء، البياض الثاني كم التاريخ غداً؟ الثاني

والعشرون من شهر ذي القعدة، في العربية ما في أشهر بالعدد واحد اثنين ثلاثة شهر خمسة شهر ستة، ما في هذا وإنَّما في أسمائها، والشهر اسمه شهر ذي القَعدة، بفتح القاف في أفصح اللغتين والكسر جائز، سنة خمس وثلاثين بعد الأربع مائة والألف في مسجد ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ بمدينة الرياض.

وبهذا نكون قد فرغنا من الكتاب الأول بعون الله وتوفيقه، وأُنبه هنا إلىٰ أمور:

أحدها: أن الأسبوع المقبل ليس ثم درس لأني أكون مسافرا فتبدأ الدروس في المسجد الحرام بإذن الله تعالىٰ في يوم الأربعاء، وهذا هو التنبيه الثاني، فبرنامج تعليم الحجاج يبتدئُ يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة بإذن الله بعد الفجر وبعد العصر وبعد المغرب وبعد العشاء.

التنبيه الثالث: تُستكمل هذه الدروس بإذن الله تعالىٰ في الأسبوع الأول من الدراسة وهو يوم الثلاثاء العشرون من ذي الحجة نستكمل إن شاء الله تعالىٰ هذه الدروس في الكتاب الثاني وهو **"ثلاثة الأصول وأدلتها"**.

التنبيه الرابع: هذه الدرس أي كتاب؟ "خلاصة تعظيم العلم"، والله ﷻ جاء لنا بمثال ما تكلفناه في تعظيم العلم، هذه ثلاثة أوراق علىٰ أنواع مختلفة، هذه واحدة وهذه الثانية وهذه علىٰ كرتون في سيارة مغلقة علىٰ أحد الناس، وتعظيم العلم في هذا المقام من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أنه لا يليق بطلاب العلم أن يؤذوا المسلمين، فالذي يريد أن يقف في مكان يتحرَّىٰ ألا يقف بما يوجد معه ضرر لغيره، فلا يقف عند باب مُشرع لخروج السيارات ودخولها، ولا يقف وراء سيارة يغلق عليها، وكان عمر رضي الله عنه يقول: أحبُّ إلي أن يلبس صاحب العلم البياض؛ يعني تعظيمًا له، وكذلك من تعظيم العلم أن من حضر إلىٰ مجالس العلم بسيارته ألا يؤذي بها المسلم.

والأمر الثاني: أن من تعظيم العلم ألا أُشغل نفسي ولا أُشغلكم بهذا لأنه ليس من وظائفنا أن نصدح ونقول سيارة رقم كذا وكذا مُغلقة علىٰ باب كذا وكذا لأن هذا ليس من وظائفنا، هناك إدارة في الحكومة اسمها المرور، فالذي يقع له مثل هذا يتَّصل علىٰ المرور ويُخبر عن شكواه، فإنَّا لو قُدِّر أنَّ هذا الحادث وقع عند الإمارة أو عند مستشفىٰ أو عند بنك فإنَّ صاحب السيارة لا يذهب إلىٰ الأمير في الإمارة ولا يذهب إلىٰ مدير البنك ولا يذهب إلىٰ مدير المستشفىٰ يقول: فيه سيارة واقفة مسكرة علىٰ سيارتي لا؛ ما يفعل ذلك وإنَّما يبحث عن طريق يصل بها إلىٰ نزع هذه السيارة التي أضرته والسبيل المأمون أن يتصل بالمرور، فيقول: يوجد سيارة أغلقت علي أرجو أن تأتوا وتحضروا وتزيلوها عني، ولذلك تكررت علي

هذه الأشياء الثلاثة ومع ذلك لم أُلقي لها بالاً، وكيف يكون تعظيم العلم بالله وأنا أُلقي بالاً إلىٰ ما كُتب علىٰ كرتون؟ فينبغي أن يعرف طالب العلم عظمة العلم، وما استخفَّ الناس بالعلم إلا لمَّا استخفَّ به أهله، لو كان أهلُ العلم يعظِّمون العلم وينزلونه منزلته ما استخفَّ الناس بمثل هذا ولتعلموا الناس أن هذه الواجبات لها جهات تقوم بها، فأنا أرجو منكم جميعًا أن تتحروا تعظيم العلم بعدم أذية المسلمين في الوقوف عند أبوابهم أو إغلاق سياراتهم، كذلك أنبه الجميع أن مثل هذه المسائل لا نشتغل بها ولا نُلقي إليها بالا لأنها ليست من وظائفنا، وعل هذا فقس أيُّ شيءٍ ليس لك به صلة يا طالب العلم فلا تشتغلْ به تعظيمًا للعلم.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين..